الإيمَان

أركانه .. حقيقته .. نواقضه

محمد نعيم ياسين

منبر التوحيد والجهاد

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له . ونشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد :

فإن أصل الفساد مخالفة الحق، وتنكب طريقه، وصلاح الأمر كله في اتباع الحق والتزام طريقه . والحق هو الوضع الثابت الذي خلق الله عليه مخلوقاته، أو أرادها أن تكون عليه، ذلك أنه ليس من مخلوق في الدنيا إلا وخلقه الله وحده، لم يشاركه أحد في خلقه، وليس من مخلوق في الدنيا إلا وجعله الله سبحانه وتعالى على وضع معين، ودبر أمره بكيفية معينة . والله سبحانه وتعالى كامل منزه عن الخطأ : فالصلاح كله في خلقه وتدبيره .

وكل شيء ينحرف عن الوضع الإلهي والتدبير الرباني يفسد : فهذه السموات والأرض خلقها الله بالحق، ودبر أمرهما بحكمته، فصلحتا بخلقه وتدبيره سبحانه : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

والإنسان مخلوق الله عز وجل، وصلاح حياته مرهون بمعرفة الحق واتباعه . وفسادها نتيجة محتومة لجهله بالحق، أو تمرده عليه وإن عرفه . ولما كان الله سبحانه هو الحق، ومنه الحق، وأمره وتدبيره هو الحق، فإن سبب فساد الحياة البشرية كلها هو الكفر بالخالق، والكفر بأمره وتدبيره، وبما أنزل من الحق . وسبب صلاح هذه الحياة كلها هو الإيمان بالله عز وجل، وبما نزل منه، والالتزام بإرادته وأمره في أوضاع الإنسان كلها . ولذلك قال عز من قائل : ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طـه : ١٢٣ – ١٢٤] .

ولا يتبع هداه إلا من آمن به، وذكره، واستشعر وجوده، وصفاته وعظمته سبحانه ومن نسي ذكر الله أعرض عن هداه . والإنسان ممتحن في هذه الدنيا بهذين الأمرين : ذكر الله واتباع هداه، أو نسيانه والضلال، فهو على مفرق طريقين لا ثالث

لهما : طريق الإيمان والهدى والسعادة في الدنيا والآخرة، وطريق الكفر والضلال والشقاء في الدارين .

لذا كان أشرف ما يتعلمه الإنسان، ويعلمه لغيره أمور الإيمان وأركانه ومقتضياته . وأحوط ما يحتاط ويتسلح به معرفة معالم الكفر، وأسبابه، ومقتضياته، فإن كان على بصيرة من هذين الأمرين الخطيرين، عرف الإنسان طريق سعادته، فالتزمه، و لم يحد عنه، وطريق شقائه، فاجتنبه .

وفي هذا الكتاب نرجو أن نوضح – بما يمن الله علينا من العلم، ويفتح علينا من الحق – أمور الإيمان وأركانه، ومعالم الكفر، وأسبابه، ومداخله . والله سبحانه وتعالى هو الموفق للصواب : فما أصبنا فيه الحق فهو الحق من الحق، جل وعلا، وما أخطأنا فهو من أنفسنا ومن الشيطان، ونتضرع إلى الله أن يغفره لنا، ويسخر من عباده الصالحين من يصوبه ويبين الحق فيه .

هذا ونجعل الكتاب في قسمين اثنين :

الأول : ونتناول فيه أركان الإيمان، وحقيقته .

الثاني : ونتناول فيه أسباب الكفر ومداخله .

القسـم الأول
فـي أركـان الإيمـان

قال الله عز وجل : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء : ١٣٦] .

وقال أيضاً : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ...﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وفي حديث جبريل المشهور، حين جاء إلى النبي ﷺ في صورة أعرابي يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال ﷺ عن الإيمان : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره) (١) .

فهذه الأمور الستة هي أركان الإيمان، وهي الأصول التي بعث بها الرسل عليهم صلوات الله وسلامه، ونزلت بها الكتب، ولا يتم إيمان أحد إلا إذا آمن بها جميعاً، على الوجه الذي دلّ عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن جحد شيئا منها خرج عن دائرة الإيمان وصار من الكافرين .

(١) رواه الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه – انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ١ ص١٥٧، وأخرج البخاري نحوه عن أبي البخاري نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه – انظر البخاري مع فتح الباري جـ١ ص٩٦، ٩٧ .

منبر التوحيد والجهاد

الإيمان بالله عز وجل

والإيمان بالله عز وجل معناه الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه . وأنه الذي يستحق وحده أن يفرد بالعبادة : من صلاة وصوم ودعاء ورجاء وخوف وذل وخضوع . وأنه المتصف بصفات الكمال كلها، المتره عن كل نقص .

فالإيمان بالله سبحانه يتضمن توحيده في ثلاثة : في ربوبيته، وفي ألوهيته، وفي أسمائه وصفاته . ومعنى توحيده في هذه الأمور اعتقاد تفرده سبحانه بالربوبية والألوهية وصفات الكمال وأسماء الجلال : فلا يكون العبد مؤمناً بالله حتى يعتقد أن الله رب كل شيء ولا رب غيره، وإله كل شيء ولا إله غيره، وأنه الكامل في صفاته وأسمائه، ولا كامل غيره .

فهذه ثلاثة أنواع من التوحيد تدخل في معنى الإيمان بالله عز وجل (١)، وفيما يلي تفصيل الكلام في كل نوع منها :

النوع الأول : توحيد الربوبية :

ومعناه الإجمالي الاعتقاد بأن الله رب كل شيء، ولا رب غيره .

وبيانه : أن الرب في اللغة هو المالك المدبر (٢) . وربوبية الله على خلقه تعني تفرده سبحانه في خلقهم وملكهم وتدبير شؤونهم . فتوحيد الله في الربوبية هو الإقرار بأنه سبحانه هو خالق الخلق، ومالكهم، ومحييهم ومميتهم، ونافعهم وضارهم ومجيب دعائهم عند الاضطرار، والقادر عليهم، ومعطيهم ومانعهم، وله الخلق، وله الأمر كله، كما قا سبحانه عن نفسه : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٦، وتيسير العزيز الحميد ص١٧، والروضة الندية ص٩ نقلا عن مدارج السالكين . وقد أعاد بعض العلماء هذه الأنواع الثلاثة للتوحيد إلى نوعين : نوع في العلم والاعتقاد ويدخل فيه توحيد الله في الربوبية وتوحيده في الأسماء والصفات، ونوع في الإرادة والقصد، وهو توحيد الله في ألوهيته سبحانه – انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٨٨، وفتح المجيد ص١٥، وشرح قصيدة ابن القيم جـ٢ ص٢٥٩، وتطهير الاعتقاد ص٣ .

(٢) انظر المصباح المنير .

ويدخل في هذا التوحيد الإيمان بقدر الله سبحانه : أي الإيمان بأن كل محدث صادر عن علم الله عز وجل وإرادته وقدرته (١) .

وبعبارة أخرى فإن هذا التوحيد معناه الإقرار بأن الله عز وجل هو الفاعل المطلق في الكون : بالخلق، والتدبير، والتغيير، والتسيير، والزيادة، والنقص، والإحياء والإماتة، وغير ذلك من الأفعال، لا يشاركه أحد في فعله سبحانه .

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع من التوحيد جد الإفصاح، ولا تكاد سورة من سوره تخلو من ذكره أو الإشارة إليه، فهو كالأساس بالنسبة لأنواع التوحيد الأخرى، لأن الخالق المالك المدبر هو الجدير وحده، بالتوجه إليه بالعبادة والخشوع والخضوع، وهو المستحق وحده، للحمد والشكر، والذكر، والدعاء، والرجاء، والخوف، وغير ذلك . والعبادة كلها لا يصح أن تكون إلا لمن له الخلق والأمر كله (٢) .

ومن جهة أخرى فإن الخالق المالك المدبر هو الجدير وحده بصفات الجلال والجمال والكمال، لأن هذه الصفات لا تكون إلا لرب العالمين، إذ يستحيل ثبوت الربوبية والملك لمن ليس بحـــي ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أقواله وأفعاله (٣) .

ولهذا فإنا نجد أن القرآن الكريم قد ذكر هذا النوع من التوحيد في مقام الحمد لله، وعبادته، والانقياد له والاستسلام . وفي مقام بيان صفاته الجليلة وأسمائه الحسنى :

ففي مقام الحمد يتلو المسلم في كل ركعة يصليها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة : ٢] ويقول سبحانه وتعالى : ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثـــية : ٣٦] .

وفي مقام الاستسلام لله والانقياد له قال عز وجل : ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [االأنعام : ٧١] .

وفي مقام التوجه لله عز وجل وإخلاص القصد إليه قال عز وجل : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام : ١٦٢] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٧٦، ٧٧، تيسير العزيز الحميد ص١٧، ١٨ .

(٢) انظر تفسير الطبري جـــ٥ ص٣٩٥ . شرح ملا علي القاري على الفقه الأكبر ص٩ .

(٣) فتح المجيد ص١٣، الأسئلة والأجوبة ص٢٩، ٣٠ .

وفي مقام تولي الله عز وجل دون غيره قال سبحانه : ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام : ١٤] .

وفي مقام الدعاء قال عز وجل : ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف : ٥٤ – ٥٥] .

وفي مقام عبادة الله عز وجل قال سبحانه : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يّــس : ٢٢]، وقال أيضا : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ۞الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢١ – ٢٢] .

فإن خالق السموات والأرض وما فيهن هو وحده الذي يستحق أن يتخذه العبد إلها ووليا، ويسلم نفسه إليه، ويدعوه، ويتوجه إليه .

ومن جهة أخرى فإنا نجد القرآن الكريم يجمع بين ربوبية الله عز وجل المتمثلة في ملكه للسموات والأرض وما فيهما، وقوميته عليهما، وبين أسمائه الحسنى وصفاته العلى : فتدبر قوله تعالى في آية الكرسي : ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة : ٢٥٥]، فإن الذي خلق السموات والأرض هو وحده الحي الذي لا يموت، القيوم، العليم، الحفيظ، العلي، العظيم، ثم انظر إلى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [قّ : ١٦] . وقوله تعالى ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤]، فإنه لا جدال أبداً في أن الذي خلق الخلق هو الرقيب عليهم، اللطيف الخبير بما يعملون .

وأما الذين يقرون بأن الله رب كل شيء، ولا يوحدونه في ألوهيته فيشركون معه غيره في عبادته، ولا يوحدونه في أسمائه وصفاته، فيعطلونها أو يشبهونها بصفات المخلوق، أو يؤولونها تأويلات فاسدة لا وجه لها، فإن هذا التوحيد لا ينفعهم . ولا يخرجهم من دائرة الكفر إلى دائرة الإيمان، فقد حكى الله سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم كانوا

مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء، وظلوا مع ذلك مشركين (١)، لأنهم لم يوحدوا الله في ألوهيته، فعبدوا غيره سبحانه، ولأنهم لم يوحدوا الله في أسمائه وصفاته، فجحدوا بعضها، و لم يؤمنوا بها، ولذلك قال عنهم الله عز وجل : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف : ١٠٦] . فقد قال مجاهد في هذه الآية : (إيمانهم بالله قولهم إن الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره) (٢) .

وقالت طائفة من السلف : (تسألهم : من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون : الله، وهم مع هذا يعبدون غيره) (٣) . وقد أخبر سبحانه عن المشركين أنهم كانوا يؤمنون بأن الله هو الخالق الرازق المالك، فقال عز من قائل : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف : ٨٧]، وقال أيضا : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس : ٣١] .

وهكذا فإنه ليس كل من أقر بأن الله تعالى رب كل شيء يكون موحداً له في ألوهيته وصفاته وأسمائه (٤) . وأكثر العباد لا ينكرون الخالق، وربوبيته على الخلق، ولكن معظم كفرهم من عبادتهم غير الله عز وجل (٥) .

النوع الثاني : توحيد الألوهية :

ومعناه بعبارة إجمالية الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه هو الإله الحق، ولا إله غيره وإفراده سبحانه بالعبادة، وبيانه : أن الإله هو المألوه (٦)، أي المعبود، والعبادة في اللغة

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٧٩، فتح المجيد ص١٧، تيسير العزيز الحميد ص١٧، تطهير الاعتقاد ص٥ .

(٢) انظر تفسير الطبري، جـ١٦، ص٢٨٧ .

(٣) ذكره ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم – انظر تفسير ابن كثير جـ٢ ص٤٩٤، وتفسير الطبري جـ١٦ ص٢٨٦ – ٢٨٨ .

(٤) فتح المجيد ص١٧، شرح ملا علي القاري على الفقه الأكبر ص٩ .

(٥) إحياء علوم الدين جـ ص١٨٢، شرح العقيدة الطحاوية ص٧٨ .

(٦) فهو على وزن فعال بمعنى مفعول، مثل كتاب بمعنى مكتوب – المصباح المنير، وانظر أيضا طريق الوصول إلى العلم المأمول ص١٢ .

هي الانقياد والتذلل والخضوع (١)، وقد عرفها بعض العلماء بأنها كمال الحب مع كمال الخضوع (٢) .

فتوحيد الألوهية مبني على إخلاص العبادة لله وحده، في باطنها وظاهرها، بحيث لا يكون شيء منها لغيره سبحانه : فالمؤمن بالله يعبد الله وحده ولا يعبد غيره، فيخلص لله المحبة والخوف والرجاء والدعاء والتوكل والطاعة والتذلل والخضوع، وجميع أنواع العبادة وأشكالها .

وهذا النوع من التوحيد يتضمن في حقيقته جميع أنواع التوحيد الأخرى : فيتضمن توحيد الله في ربوبيته، وتوحيده في أسمائه وصفاته، وليس العكس، فإن توحيد العبد لله في ربوبيته لا يعني أنه يوحده في ألوهيته (٣)، فقد يقر بالربوبية، ولا يعبد الله عز وجل . وكذلك توحيد الله في أسمائه وصفاته لا يتضمن أنواع التوحيد الأخرى، ولكن العبد الذي يوحد الله في ألوهيته على الخلق، فيقر أنه سبحانه هو، وحده، المستحق للعبادة، وأن غيره لا يستحقها ولا يستحق شيئاً منها، يقر في الواقع بأن الله رب العالمين، وبأن له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة، لأن إخلاص العبادة لا يكون لغير الرب ولا يكون لمن فيه نقص (٤)، إذ كيف يعبد من لم يخلق ولم يدبر أمر الخلق، وكيف يعبد من كان ناقصاً ؟

ومن هنا كانت شهادة أن "لا إله إلا الله" متضمنة لجميع أنواع التوحيد : فمعناها المباشر توحيد الله في ألوهيته، الذي يتضمن توحيد الله في ربوبيته وأسمائه وصفاته .

من أجل ذلك كان هذا التوحيد أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، ومن أجله خلقت الخليقة، كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

---

(١) تقول : طريق معبد : أي مذلل – انظر أساس البلاغة للزمخشري، والمصباح المنير، وتطهير الاعتقاد ص٦ .

(٢) شرح قصيدة ابن القيم جـ٢ ص٢٥٩، إغاثة اللهفان جـ٢ ص١٢٨، ١٢٩ .

(٣) هذا مع ملاحظة أن وحدانية الله في ربوبيته على الخلق دليل قاطع على أنه سبحانه هو وحده الذي يستحق العبادة، كما تقدم عند الكلام عن توحيد الربوبية ولكن كثيراً من الناس لا يأخذون بمقتضى الدليل عنادا وكفراً . فيقرون بالربوبية ولا يقرون بما تدل عليه من وحدانية الله في الألوهية .

(٤) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٧٩ وما بعدها .

يقول ابن تيمية : (وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة، فمن لم يأت به كان من المشركين) (١) .

ومن أجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، فما من رسول أرسله الله إلى العباد إلا وكان هذا التوحيد أساس دعوته وجوهرها، قال عز وجل : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦] .

وقال سبحانه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥]، وأخبر عز وجل عن رسله نوح وهود وصالح وشعيب أنهم كانوا جميعاً يقولون لأقوامهم هذه الكلمة : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا﴾ [المؤمنون : ٢٣]، كما أخبر سبحانه وتعالى عن إبراهيم # أنه قال لقومه : ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام : ٧٩] .

ولما كان هذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام فقد كانت الشهادتان أول ركن من أركان هذا الدين، قال رسول الله ﷺ : " بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت " (٢) .

هذا ويستلزم توحيد الله في ألوهيته أن نتوجه إليه، وحده، بجميع أنواع العبادة وأشكالها، ونخلص قلوبنا فيها من أية وجهة أخرى، وهذه عبارة تدخل فيها أمور كثيرة، نذكر منها :

١- وجوب إخلاص المحبة لله عز وجل، فلا يتخذ العبد ندا لله في الحب، يحبه كما يحب الله، أو يقدمه في المحبة على حب الله عز وجل، فمن فعل ذلك كان من المشركين، قال عز وجل : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

فمن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه : أن يتخذ العبد من دون الله نداً يحبه كما يحب الله عز وجل (٣)، وإذا كان الإنسان مفطورا على حب الذات والآباء

---

(١) رسالة الحسنة والسيئة لابن تيمية ضمن مجموعة رسائل ص٢٦١ .

(٢) رواه البخاري ومسلم – انظر : زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم جـ١ ص١٣٩ .

(٣) شرح قصيدة ابن القيم جـ٢ ص٢٦٨ .

والأبناء والأوطان والأموال، فإن إخلاص العبودية لله لا تعني القضاء على هذه الفطرة، وإنما المطلوب من المؤمن أن يكون حب كل شيء في الدنيا عنده بعد حب الله عز وجل، وحب الله سبحانه عنده فوق كل حب، حتى يضحي بكل هذه القيم في سبيل الله إذا وقع تعارض بينها وبين ما يقتضيه حبه لربه، وقد توعد الله عز وجل من يقدمون هذه القيم الدنيوية على حب الله وحب رسوله ﷺ فقال سبحانه : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة : ٢٤] .

٢- وجوب إفراد الله تعالى في الدعاء والتوكل والرجاء فيما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه قال عز وجل : ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس : ١٠٦] . وقال تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة : ٢٣]، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

٣- وجوب إفراد الله عز وجل بالخوف منه، فمن اعتقد أن بعض المخلوقات تضره بمشيئتها وقدرتها (١)، فخاف منها فقد أشرك بالله، لقوله تعالى : ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل : ٥١]، ولقوله أيضاً : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس : ١٠٧] .

٤- وجوب إفراد الله سبحانه بجميع أنواع العبادات البدنية من صلاة وركوع وسجود وصوم وذبح وطواف، وجميع العبادات القولية من نذر واستغفار وغير ذلك .

---

(١) هذا القيد للتمييز بين خوف العبادة والخوف الفطري : فالأول لا يصح إلا لله عز وجل . ومعناه أن يعتقد الإنسان أن القادر على الضرر بمشيئته وقدرته هو الله، وغيره لا يضر ولا ينفع إلا أن يجعله الله سببا للضر والنفع، ومن علامات خوف العبادة أنه يقع في القلب كلما ذكر المخوف منه . وأما الخوف الفطري كخوف الحيوان المفترس أو الخوف عند إشهار السلاح ونحوه، فلا يحدث في القلب إلا عند مباشرة المكروه، وهذا لا يضر بالتوحيد لأنه من فطرة الإنسان التي فطره الله عليها .

فهذه العبادات وغيرها يجب أن تكون لله تعالى وحده، ومن صرف شيئا منها لغير الله فقد أشرك، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ [النساء : ٤٨] .

النوع الثالث : توحيد الأسماء والصفات :

ومعناه بعبارة إجمالية الاعتقاد الجازم بأن الله عز وجل متصف بجميع صفات الكمال، ومتره عن جميع صفات النقص، وأنه متفرد عن جميع الكائنات، وذلك بإثبات ما أثبته سبحانه لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات الورادة في الكتاب والسنة من غير تحريف ألفاظها أو معانيها، ولا تعطيلها بنفيها أو نفي بعضها عن الله عز وجل، ولا تكييفها بتحديد كنهها وإثبات كيفية معينة لها، ولا تشبيهها بصفات المخلوقين .

وواضح من هذا التعريف أن توحيد الأسماء والصفات يقوم على ثلاثة أسس، من حاد عنها لم يكن موحدا ربه في أسمائه وصفاته (١) :

الأول : تتريه الله جل وعلا عن مشابهة الخلق، وعن أي نقص .

الثاني : الإيمان بالأسماء والصفات الثابتة في الكتاب والسنة، دون تجاوزها بالنقص منها أو الزيادة عليها أو تحريفها أو تعطيلها .

الثالث : قطع الطمع عن إدراك كيفية هذه الصفات .

فأما الأساس الأول فهو تتريه الله عز وجل عن أن يشبه شيء من صفاته شيئا من صفات المخلوقين . وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١]، وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ٤]، وقوله تعالى : ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل : ٧٤] .

يقول القرطبي عند تفسير قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ : والذي يعتقد في هذا الباب أن الله جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته وحسنى أسمائه وعليّ صفاته لا يشبه شيئا من مخلوقاته، ولا يشبه به، وما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي، إذ صفات القديم جل وعز بخلاف صفات المخلوق (٢)، وقال الواسطي رحمه الله : (ليس كذاته، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا

---

(١) انظر : منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات للشيخ محمد الأمين الشنقيطي : ص٣، ٢٥ .

(٢) تفسير القرطبي جـ١٦ ص٨ "مطبعة دار الكتب المصرية" .

من جهة موافقة اللفظ، وجلت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة، وكما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة . وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة) (١) .

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند تفسير الآية المذكورة : (والفطرة تؤمن بهذا بداهة، فخالق الأشياء لا تماثله هذه الأشياء التي هي من خلقه) (٢) .

ويدخل في هذا الأساس تتريه سبحانه عن كل ما يناقض ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ : فتوحيد الله في صفاته يقتضي المسلم أن يتره ربه عن الزوجة والشريك والكفؤ والظهير والشفيع (بدون إذن الله)، والولي من الذل . ويقتضيه أن يتره الله عن النوم والإعياء والتعب والموت والجهل والظلم والغفلة والنسيان والنعاس والتحيز وغير ذلك من صفات النقص .

وأما الأساس الثاني فيقتضي وجوب الاقتصار فيما يثبت لله من الأسماء والصفات على ما ورد منها في القرآن الكريم أو في السنة الثابتة، فهي تتلقى عن طريق السمع، لا بالآراء، فلا يوصف الله عز وجل إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ ولا يسمى إلا بما سمي به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ، لأن الله عز وجل أعلم بنفسه وصفاته وأسمائه، قال تعالى : ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة : ١٤٠] .

فإذا كان أعلم بنفسه، وكان رسله صادقين مصدقين، لا يخبرون إلا بما أوحي إليهم من ربهم، فإذن يجب الرجوع في باب الأسماء والصفات نفياً وإثباتاً إلى ما أخبر به الله عز وجل وأخبر به رسوله ﷺ . قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله تعالى : (لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، لا يتجاوز القرآن والحديث) .

وقال نعيم بن حماد شيخ البخاري : (من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل) (٣) .

ويقتضي هذا الأساس كل عبد مكلف أن يؤمن بما ورد من الصفات والأسماء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويجريها على معانيها الواضحة الظاهرة في لغة العرب، ولا يعطلها، أي يجحدها أو ينفي بعضها عن الله عز وجل، ولا يحرفها عن معانيها الظاهرة .

وأما الأساس الثالث فيقتضي من العبد المكلف أن يؤمن بتلك الصفات والأسماء المنصوص عليها في الكتاب والسنة من غير سؤال عن كيفيتها، ولا بحث عن كنهها، وذلك لأن معرفة كيفية الصفة متوقفة على معرفة كيفية الذات، لأن الصفات تختلف

---

(١) تفسير القرطبي جـ١٦ ص٩ (مطبعة دار الكتب المصرية) .

(٢) في ظلال القرآن الكريم جـ٧ ص٢٧٢ .

(٣) انظر المرجعين السابقين، واتحاف الكائنات ص٦، وشرح ملا علي القاري ص١٥ .

باختلاف موصوفاتها وذات الله عز وجل لا يسأل عن كنهها وكيفيتها، فكذلك صفاته سبحانه لا يصح السؤال عن كيفياتها (١) . ولذلك أثِرَ عن كثير من السلف أنهم قالوا عندما سئلوا عن كيفية استواء الله عز وجل : (الاستواءُ معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به (٢) واجب، والسؤال عنه بدعة) (٣) . فاتفق هؤلاء السلف على أن الكيف غير معلوم لنا، وأن السؤال عنه بدعة .

فلو أن قائلا قال لنا : كيف ينزل ربنا إلى سماء الدنيا ؟ قيل له : كيف هو ؟ فإذا قال : لا أعلم كيفيته، قيل له : ونحن لا نعلم كيفية نزوله، إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف، وهو فرع وتابع له، فكيف تطالبنا ببيان كيفية سمع الله وبصره وتكلمه واستوائه ونزوله ؟ وأنت لا تعلم كيفية ذاته ! وإذا كنت تقرأ بأن الله عز وجل حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال، لا يماثلها شيء، فسمعه وبصره وكلامه ونزوله واستواؤه سبحانه ثابت في نفس الأمر، وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم (٤) .

ويتبين مما تقدم أن هذا التوحيد يقدح فيه عدة أمور يجب أن لا يقع فيها المسلم، وهي :

١- التشبيه : أي تشبيه صفات الخالق بصفات المخلوق، كتشبيه النصارى المسيح ابن مريم بالله سبحانه، وكتشبيه اليهود عزيرا بالله، وتشبيه المشركين أصنامهم بالله . وكتشبيه بعض الطوائف وجه الله بوجه المخلوق، ويد الله بيد المخلوق، وسمع الله بسمع المخلوق، ونحو ذلك (٥) .

٢- التحريف، أو التغيير والتبديل، كتحريف ألفاظ الأسماء والصفات بزيادة أو نقصان أو تغيير الحركات الإعرابية، أو تحريف معناها مما سماه بعض المبتدعين تأويلاً، وهو حمل اللفظ على معنى فاسد لم يعهد به استعمال في اللغة، كتحريف بعضهم لقوله تعالى وكلم الله موسى تكليما بنصب لفظ الجلالة ابتغاء نفي صفة الكلام عنه عز وجل .

---

(١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات – محمد الأمين الشنقيطي ص٢٥، الروضة الندية ص٢٣، ٢٨ .

(٢) أي بالاستواء .

(٣) الروضة الندية ص٢٩ .

(٤) انظر الروضة الندية ص٣٤ .

(٥) الأسئلة والأجوبة الأصولية – تأليف عبد العزيز المحمد السلمان ص٣٥، الروضة الندية ص٣٥ .

٣- التعطيل، وهو نفي الصفات الإلهية، وإنكار قيامها بذات الله سبحانه، كتعطيل الله جل وعلا عن كماله المقدس، وذلك بجحد أسمائه وصفاته . وكتعطيل معاملة الله عز وجل بترك عبادته . وكتعطيل المصنوع من صانعه، كمن قال بقدم المخلوقات، وجحد أن الله خلقها وصنعها (١) .

٤- التكييف، وهو تعيين كيفية الصفات، وإثبات كنهها .

وهذا المنهج في أخذ الصفات والأسماء المذكورة في القرآن والسنة على ظاهرها من دون تشبيه ولا تحريف ولا تكييف هو مذهب السلف من الصحابة رضوان الله عليهم، والتابعين وتابعيهم، يقول الشوكاني : (إن مذهب السلف من الصحابة – رضي الله عنهم – والتابعين وتابعيهم هو إيراد أدلة الصفات على ظاهرها من دون تحريف لها ولا تأويل متعسف لشيء منها ولا تشبيه، ولا تعطيل يفضي إليه كثير من التأويل وكانوا إذا سأل سائل عن شيء من الصفات تلوا عليه الدليل، وأمسكوا عن القال والقيل، وقالوا : قال الله هكذا، ولا ندري بما سوى ذلك، ولا نتكلف ولا نتكلم بما لم نعلمه، ولا أذن الله لنا بمجاوزته . فإن أراد السائل أن يظفر منهم بزيادة على الظاهر زجروه عن الخوض فيما لا يعنيه، ونهوه عن طلب ما لا يمكن الوصول إليه إلا بالوقوع في بدعة من البدع التي هي غير ما هم عليه، وما حفظوه عن رسول الله ﷺ وحفظه التابعون عن الصحابة، وحفظه من بعد التابعين عن التابعين . وكان في هذه القرون الفاضلة الكلمة في الصفات متحدة، والطريقة لهم جميعا متفقة، وكان اشتغالهم بما أمرهم الله بالاشتغال به، وكلفهم القيام بفرائضه من الإيمان بالله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج والجهاد وإنفاق الأموال في أنواع البر وطلب العلم النافع، وإرشاد الناس إلى الخير على اختلاف أنواعه، والمحافظة على موجبات الفوز بالجنة والنجاة من النار، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الظالم بحسب الاستطاعة وبما تبلغ إليه القدرة، ولم يشتغلوا بغير ذلك مما لم يكلفهم الله بعمله ولا تعبدهم بالوقوف على حقيقته، فكان الدين إذ ذاك صافيا عن كدر البدع ...) (٢) .

أنواع الصفات :

والصفات التي وردت في الكتاب والسنة نوعان (٣) : صفات ذاتية، وصفات فعل : فأما الصفات الذاتية فهي التي لا تنفك عن الله سبحانه كالنفس والعلم والحياة والقدرة والسمع والبصر والوجه والكلام والقدم والملك والعظمة والكبرياء والعلو والغنى

---

(١) انظر المرجعين السابقين .

(٢) انظر : التحف في مذاهب السلف للشوكاني ص٧ .

(٣) انظر : الأسئلة والأجوبة ص٤٨، والفقه الأكبر وشرحه لملا علي القاري ص١٥ .

والرحمة . وضابط هذا النوع من الصفات الملازمة لذات الله عز وجل أنها قائمة في الله سبحانه لا ينفك عنها .

وأما صفات الفعل فهي ما تعلق بمشيئة الله وقدرته، كالاستواء والنزول والمجيء والعجب والضحك والرضى والحب والكره والسخط والفرح والغضب والمكر والكيد والمقت .

والواجب في هذه الصفات بنوعيها إثباتها لله عز وجل على حسب المعنى الذي يليق بكمال الله تعالى، وهو المعنى الحقيقي لها الذي ليس فيه تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تكييف . وأن نقول مثل ما قال الإمام الشافعي ، " : (آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول على مراد رسول الله ﷺ) (١) .

أسماء الله عز وجل :

وأما أسماء الله عز وجل، فهي أعلام عليه، أخبرنا بها الله في كتابه، والرسول ﷺ في سنته . وكل اسم من هذه الأسماء يدل على صفة أو صفات لله سبحانه، وكل اسم منها مشتق من مصدره، كالعليم والقدير والسميع والبصير، ونحوها، فالعليم مشتق من العلم، وهو يدل على صفة العلم للباري، وكذلك بقية الأسماء .

والإسم الجامع لمعاني الأسماء كلها، والصفات كلها هو " الله " وقد اختلفوا في اشتقاقه : فقال جماعة : وأصله " الإله " حذفوا الهمزة، وأدغموا اللام في اللام فصارتا لاما واحدة مشددة مضخمة، ورجح هذا ابن القيم وسيبويه والطبري . وذهب بعضهم إلى أنه ليس بمشتق (٢) .

هذا ولا تنافي بين كون هذه الأسماء نعوتا لله عز وجل وأعلاما عليه، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه، وكل أسماء الله تدل على معانيها، وجميعها أوصاف مدح (٣) .

وسميت " الحسنى " لدلالتها على أحسن مسمى، وأشرف مدلول .

وتوحيد الله في أسمائه يقتضي الإيمان بكل اسم سمى به نفسه، بما دل عليه هذا الاسم من معنى وبما تعلق بهذا الاسم من آثار . فمثلا : ورد في القرآن اسم الله "الرحيم"، فنؤمن بأن هذا علم على الله عز وجل، ونؤمن بأن هذا الاسم يدل على أن الله ذو رحمة،

---

(١) الأسئلة والأجوبة الأصولية ص٥٠ .

(٢) انظر : فتح المجيد ص١١ . وقد قال الطبري في معنى لفظ الجلالة : الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين – تفسير الطبري جـ١ ص١٢٣ .

(٣) فتح المجيد ص١٤، الأسئلة والأجوبة الأصولية ص٤٤ .

ونؤمن أيضا أن الله يرحم من يشاء، وكذلك كل اسم ورد في كتاب وسنة رسوله ﷺ (١) .

وأما عدد أسماء الله جل وعلا، فالذي ورد النص عليه تسعة وتسعون اسماً : جاء في صحيح البخاري وصحيح مسلم عن أبي هريرة " قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، إنه وتر يحب الوتر﴾ (٢) . وقد اتفق العلماء على أن قول النبي ﷺ " تسعة وتسعين اسماً " لا يفيد أنها محصورة في هذا العدد، وإنما غاية ما في هذا الحديث الصحيح أن لله هذه الأسماء المذكورة، من أحصاها دخل الجنة، وليس فيه نفي غيرها عن الله سبحانه، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء (٣) .

ويدل على أن هناك أسماء لم يخبرنا بها الباري، وإنما استأثر بها في علم الغيب ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : " ما أصاب مسلما قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله عنه همه، وأبدله مكان همه فرحاً، قالوا : يا رسول الله : ألا نتعلم هذه الكلمات ؟ قال : بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن " (٤) .

وأما معنى إحصاء أسماء الله الوارد في الحديث السابق فهو : معرفتها وحفظها، وفهمها، والإيمان بها وحسن المراعاة لها، والمحافظة على حدودها في معاملة الله بها، ودعاء

---

(١) الأسئلة والأجوبة الأصولية ص٤٤ .

(٢) أخرجه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه – انظر صحيح البخاري مع فتح الباري : جـ٥ ص٣٧٢ وهداية الباري جـ١ ص١٣٥، وصحيح مسلم بشرح النووي جـ١٧ ص٥ .

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي ص٦، إيثار الحق على الخلق للمرتضي اليماني ص١٦٩، وفتح الباري جـ١١ ص١٨٣، تفسير القواسمي جـ٧ ص٢٩١١، شرح العقيدة الطحاوية ص١١٠، صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٧ ص٥ .

(٤) رواه أحمد وأبو عوانة في صحيحه، قال الهيثمي في مجمع الزواي : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان – انظر إيثار الحق ص١٧٠ وانظر الأسماء والصفات للبيهقي ص٦، ٧ . وشرح العقيدة الطحلوية ص١١٠ .

الله عز وجل بها، فيكون معنى ما ورد في الحديث : من حفظها متفكرا في مدلولها معتبرا بمعانيها، عاملا بمقتضاها مقدسا لمسماها دخل الجنة (١) .

أدلة توحيد الأسماء والصفات :

وأدلة هذا النوع من التوحيد في القرآن الكريم، والسنة الصحيحة، كثيرة جداً بل أنه لا تخلو سورة القرآن، ولا صفحة من صفحاته، من ذكر صفات الله وأسمائه، فتجده يذكرها بها في مختلف موضوعاته، من توحيد، وعبادة وتشريع، وفي مقام أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وقصصه وأمثاله . ونذكر لك في هذا المقام سورة جامعة في توحيد الأسماء والصفات، وأعظم آية من آي القرآن .

فأما السورة، فهي سورة الإخلاص، التي تعدل ثلث القرآن، كما أخبر المصطفى ﷺ (٢)، حيث يقول الله عز وجل : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الاخلاص : ١ – ٤] .

فهذه السورة العظيمة تضمنت إثبات كل كمال لله عز وجل، ونفي كل نقص عنه . فقد أخبر سبحانه فيها أنه هو الله الأحد الصمد، وأنه لم يلد ولم يولد، وليس له كفر . ومعنى الأحد . الذي لا شبيه له ولا نظير (٣) .

فيدل هذا الاسم الكريم على أن الله سبحانه ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة له . ومعنى الصمد : السيد الذي يصمد إليه في الأمور، ويقصد في الحوائج والنوازل (٤) . فيدل هذا الاسم على أن الله وحده هو المستحق لأن يقصد بالحوائج والمسائل .

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي ص٦، والأسئلة والأجوبة ص٤٥، فتح الباري جـ١٣ ص٣٢٢، صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٧ ص٥، ٦ .

(٢) فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن رجلا سمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد، يرددها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر له، وكأن الرجل يتقالها، فقال رسول الله ﷺ " والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن " وعن أبي سعيد قال : قال النبي ﷺ لأصحابه " أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ فشق ذلك عليهم، وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : الله الواحد الصمد ثلث القرآن : انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ٩ ص٤٩، والأحاديث في فضل سورة الإخلاص كثيرة جدا : زاد المعاد جـ١ ص٨٢ .

(٣) الأسماء والصفات ص٢١، شرح ملا علي القاري على الفقه الأكبر ص١٤ .

(٤) ففتح الباري جـ ٨ ص٦٠١، الأسماء والصفات ص٥٨ . شرح ملا علي القاري على الفقه الأكبر ص١٤ .

ولا يبطل هذا الاستحقاق بذهاب من يذهب عن الحق ويضل السبيل، فيقصد الخلق، ويعرض عن الخالق جل وعلا، لأنه إذا كان الله هو الخالق والمدبر لما خلق، لا خالق غيره ولا مدبر سواه فالإعراض عن قصده سبحانه جهل وحمق، لأن الأمر كله بيده (١) . وهكذا فكما أثبت اسم الأحد نفي جميع صفات النقص عن الله عز وجل، فإن هذا الاسم (الصمد) قد أثبت لله تعالى جميع صفات الكمال والجلال (٢) .

ومن هنا تدرك لم أخبر الرسول ﷺ أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن الكريم فإنها قد تضمنت عقيدة الإسلام كلها، القائمة على إثبات صفات الكمال للخالق ونفي صفات النقص عنه، واستحقاقه سبحانه للعبادة والتوجه إليه . والقرآن بمجموعه عقيدة تبين للعباد ما يجب عليهم من معرفة الله وأسمائه وصفاته، وشريعة تبين لهم حقوقهم وواجباتهم، وكيفية التعامل بينهم، وأخبار وقصص تبين للعباد سنن الله في معاملة الخلق، وتفصل لهم ثواب الله وعقابه، ووعده ووعيده . يقول ابن القيم في بيان حقيقة هذه السورة : (فسورة الإخلاص متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصمدية، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية، ونفي الكفؤ المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير . فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذين يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك) (٣) .

وأما الآية، فهي آية الكرسي، التي أخبر الرسول ﷺ أنها أعظم آية في القرآن، وفيها يقول سبحانه وتعالى ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

فهذه الآية العظيمة تضمنت قواعد التوحيد بأنواعه الثلاثة، فقد اشتملت على صفات وأسماء كل منها يمثل قاعدة من قواعد العقيدة الإسلامية :

فقوله تعالى : ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾، قرر قاعدة الألوهية، التي هي أساس التوحيد، والتي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها، وهي تستلزم الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية والعبادة : فلا يكون الإنسان عبدا إلا لله، ولا يتجه بالعبادة إلى لله عز وجل، ولا يلتزم

---

(١) الأسماء والصفات ص٥٨ .

(٢) فتح الباري جـ٩ ص٥٠ .

(٣) انظر زاد المعاد في هدي خير العباد جـ١ ص٨١، ٨٢ .

بطاعة إلا طاعة الله، ولا يحتكم إلا إلى الله، ولا يستمد شرعه ولا قيمه ولا أخلاقه ولا مفاهيمه إلا من الله سبحانه وتعالى (١) .

وقوله تعالى : ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أثبت لذاته العلية اسمين عظيمين :

والحي : هو الذي له الحياة الدائمة، والبقاء الذي لا أول له ولا آخر (٢)، فالحياة التي يوصف بها الله هي الحياة الذاتية التي لم تأت من مصدر آخر، كحياة الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق . كذلك هي الحياة الأزلية الأبدية التي تبدأ من مبدأ، ولا تنتهي إلى نهاية (٣) .

والقيوم : هو القائم بأمور الخلق ومدبر العالم في جميع أحواله، فهو القيم على كل شيء يرزقه ويحفظه ويرعاه ويدبره بما يريد جل وعلا (٤) .

وهذان الاسمان ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ من أعظم أسماء الله الحسنى، إذ عليهما مدار الأسماء الحسنى كلها، وإليهما ترجع معانيها، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، فلا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كان الله تعالى الحياة الكاملة فله كل الكمال، وصفة القومية تتضمن كمال غناه سبحانه وكمال قدرته، فهو القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، وهو المقيم لغيره، فكل موجود مرتكن إلى وجود الله وتدبيره (٥) .

ولهذين الاسمين أثر عظيم في حياة المسلم، الذي يؤمن بهما، ويستحضر ما فيهما من معان عظيمة، فإن ضميره يظل مرتبطا بالله، حبا وعبادة وطاعة، لأنه يعلم أن ربه هو الذي يصرف أمره وأمر كل شيء حوله، وفق حكمة وتدبير، فيلتزم في حياته بالمنهج المرسوم القائم على الحكمة والتدبير، ويستمد منه قيمه وموازينه، ويرقبه في جميع أحواله (٦) .

---

(١) في ظلال القرآن – المجلد الأول ص٤١٨ – ٤١٩ .

(٢) تفسير الطبري جـ٥ ص٣٨٨ . الأسماء والصفات ص٢٠ .

(٣) في ظلال القرآن – المجلد الأول ص٤١٨، ٤١٩ .

(٤) الأسماء والصفات ص٤٨، شرح العقيدة الطحاوية ص١٢٤، تفسير الطبري جـ٥ ص٣٨٨، الروضة الندية ص٦١ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص١٢٤، ١٢٥ .

(٦) في ظلال القرآن – المجلد الأول ص٤١٩ .

وقوله تعالى : ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ : توكيد لقيامه سبحانه على كل شيء وقيام كل شيء به، لأن السنة – وهي النعاس – والنوم ينافيان الحياة الكاملة، والقومية الكاملة (١) .

وقوله تعالى : ﴿لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ﴾ : يقرر ملكيته سبحانه الشاملة لكل شيء المطلقة من أي قيد، المترهة عن أية شركة . ولهذه العقيدة، إذا استقرت في قلوب الناس أثر عظيم في حياهم .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى : (فإذا تمحضت الملكية الحقيقية لله، لم يكن للناس ملكية ابتداء لشيء، إنما كان لهم استخلاف من المالك الواحد الأصلي الذي يملك كل شيء، ومن ثم يجب أن يخضعوا في خلافتهم لشروط المالك المستخلف في هذه الملكية، وشروط المالك المستخلف قد بينها لهم في شريعته، فليس لهم أن يخرجوا عنها، وإلا بطلت ملكيتهم الناشئة عن عهد الاستخلاف ووقعت تصرفاهم باطلة .... على أن مجرد استقرار هذه الحقيقة في الضمير ... مجرد شعور الإنسان بحقيقة المالك سبحانه لما في السموات وما في الأرض، مجرد تصور الإنسان لخلو يده هو من ملكية أي شيء مما يقول : أنه يملكه ورد هذه الملكية لصاحبها مجرد إحساسه بأن ما في يده عارية لأمد محدود، ثم يستردها صاحبها الذي أعارها له في الأجل المرسوم .. مجرد استحضار هذه الحقائق والمشاعر كفيل وحده بأن يطامن من حدة الشره والطمع، وحدة الشح والحرص، وحدة التكالب المسعور، وكفيل كذلك بأن يكسب في النفس القناعة والرضى بما يحصل من الرزق، والسماحة والجود بالموجود، وأن يفبض على القلب الطمأنينة والقرار في الوجدان والحرمان على سواء، فلا تذهب النفس حسرات على فائت أو ضائع، ولا يتحرق القلب سعارا على المرموق المطلوب) (٢) .

وقوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ توضيح لمقام الألوهية ومقام العبودية، فكل مخلوق عبد لله، لا يتجاوز حد العبودية، ولا يتعداه، فليس له الشفاعة عند الله إلا بإذنه . وبهذا تضع هذه العقيدة فاصلا واضحا بين حقيقة العبودية وحقيقة الربوبية، فلا يختلطان ولا يتشاركان في شيء من الصفات أو الخصائص (٣) .

وقوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ إثبات لإحاطة علمه سبحانه وشموله للزمان والمكان والأشياء، وبيان لعجز

---

(١) المرجع السابق، الروضة الندية ص٦٣ .
(٢) في ظلال القرآن – المجلد الأول ص٤٢٠، ٤٢١ .
(٣) المرجع السابق .

المخلوقات ونقص عملهم إلا ما شاء الله أن يعلمهم (١) . وإيمان المسلم بهذه الصفة لله عز وجل واستحضارها في قلبه، يجعله مراقباً لربه دائماً، مراعياً لحدوده، سريع التوبة إليه إن أساء . إدراكه لحقيقة نفسه، ونعمة الله عليه فيما يعلمه إياه من الحقائق يجعله دائما شديد الشكر لله، وبعيدا عن البطر والكبر والتبجح .

وقوله تعالى : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ دليل على قدرته سبحانه، وتمامها .

ثم ختم سبحانه هذه الآية العظيمة بذكر اسمين من أسمائه الحسنى فقال : ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ والعلي : ذو العلو الارتفاع على خلقه (٢)، فلا يتطاول أحد إلى مقامه إلا ويرده الله إلى الخفض والهون في الدنيا، والعذاب في الآخرة والهوان .

والعظيم ذو العظمة الذي كل شيء دونه، فلا شيء أعظم منه سبحانه (٣) . وعندما تستقر حقيقة علو الله وعظمته في نفس الإنسان، فإنه يعرف قدر نفسه، ويثوب إلى مقام العبودية لله عز وجل، فلا يتكبر ولا يطغى، وإنما يخاف الله ويهابه ويتأدب معه، ومع خلقه سبحانه (٤) .

ذلك بعض من مظاهر عظمة آية الكرسي، فيبنغي لكل مسلم أن يحرص عليها، ويحفظها ويتدبر معانيها، ويستحضرها، ويراعي حقوقها، وقد ورد في فضلها أحاديث صحيحة، منها : ما رواه البخاري عن أبي هريرة من حديث طويل أن الرسول ﷺ قال له : " إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي : الله لا إله إلا هو الحي القيوم ... حتى ختم الآية، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح " (٥) . وما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي كعب قال . قال رسول الله ﷺ : " يا أبا المنذر : أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم، قال : يا أبا المنذر : أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قال : قلت ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ . قال : فضرب في صدري وقال : والله ليهنك العلم أبا المنذر " (٦) .

---

(١) تفسير الطبري جـ٥ ص٣٩٦، ٣٩٧، الروضة الندية ص٦٤ .
(٢) تفسير الطبري جـ٥ ص٤٠٥ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) في ظلال القرآن، المجلد الأول ص٤٢٤ .
(٥) انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ٢ ص٣٨٤ .
(٦) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي جـ٦ ص٩٣ .

الإيمان بالملائكة (١)

ومن أركان الإيمان : الإيمان بالملائكة .

والمقصود به الاعتقاد الجازم بأن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بالقيام بها (٢) .

فهم نوع من مخلوقات الله عز وجل، لا يصلح إيمان عبد حتى يؤمن بوجودهم وبما ورد في حقهم من صفات وأعمال، في كتاب الله سبحانه، وسنة رسوله ﷺ من غير زيادة، ولا نقصان، ولا تحريف .

قال تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب " والبخاري، عندما سأل جبريل # عن الإيمان قال ﷺ : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره " (٣) .

فوجود الملائكة ثابت بالدليل القطعي الذي لا يمكن أن يلحقه شك . ومن هنا كان إنكار وجودهم كفرا بإجماع المسلمين، بل بنص القرآن العظيم، فقد قال عز وجل : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء : ١٣٦] .

والذي يستقصي الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، التي تكلمت عن الملائكة، وأوصافهم، وأعمالهم، وأحوالهم، يلاحظ أنها تناولت، في الغالب ما

---

(١) يقوا ابن حجر في معنى الملائكة : جمع ملك مخفف اللام، فقيل : مخفّف من مالك، وقيل : مشتق من الالوكة، وهي الرسالة، وهذا قول سيبويه والجمهور، وأصلك لاك . وقيل : أصله الملك بفتح الميم وسكون اللام، وهو الأخذ بقوة، وأصله وزن " مفعل " فتركت الهمزة لكثرة الاستعمال، وظهرت في الجمع ... وقال جمهور أهل الكلام من المسلمين : الملائكة أجسام لطيفة أعطيت قدرة التشكيل بأشكال مختلفة، ومسكنها السموات . فتح الباري جـ٦ ص٢٣٢ .

(٢) انظر : الأسئلة والأجوبة الأصولية ص٢١ .

(٣) تقدم تخريجه في صفحة رقم ٥ .

يبين علاقتهم بالخالق سبحانه، وبالكون، والإنسان، فعرفنا سبحانه من ذلك على ما ينفعنا في تطهير عقيدتنا، وتزكية قلوبنا، وتصحيح أعمالنا .

وأما حقيقة الملائكة، وكيف خلقهم، وتفصيلات أحوالهم، فقد استأثر سبحانه بها . وهذه خصيصة عامة من خصائص العقائد الإسلامية، تناولت الحقائق الكونية، والتعريف بها في حدود ما يحتاج إليه البشر، ويصلح أحوالهم في المعاش والمعاد وما تطيقه عقولهم، فلم يطلعنا الله جل وعلا على جميع المغيبات، سواء منها ما تعلق بجلاله وصفاته وأسمائه، وما تعلق بمخلوقاته الغيبية .

والمؤمن الصادق يقر بكل ما أخبر به الخالق، مجملاً أو مفصلاً ولا يزيد على ذلك، ولا ينقص منه، ولا يتكلف البحث عما لم يطلعنا عليه منه، ولا يخوض فيه .

صفاتهم الخِلْقِيّة :

وبناء على ذلك فإن الخالق عز وجل لم يخبرنا من صفاتهم الخلقية إلا النزر القليل، فأخبرنا سبحانه أنهم قبل خلق آدم (١)، إذ ورد في القرآن أن الله أخبرهم بأنه سيخلق الإنسان، ويجعله في الأرض، قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٣٠] .

وأما عن المادة التي خلقوا منها، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الله خلقهم من نور، فقد أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنا أن رسول الله ﷺ قال : " خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم " (٢) .

وتدل النصوص، في مجموعها، على أن الملائكة مخلوقات نورانية ليس لها جسم مادي يدرك بالحواس الإنسانية، وأنهم ليسوا كالبشر : فلا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزاوجون، مطهرون من الشهوات الحيوانية، ومنزهون عن الآثام والخطايا ولا يتصفون بشيء من الصفات المادية التي يتصف بها ابن آدم (٣) .

غير أن لهم القدرة على أن يتمثلوا بصور البشر، بإذن الله تعالى . كما أخبر الله عز وجل عن جبريل # أنه جاء مريم في صورة بشرية، فقال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ

(١) انظر : فتح الباري جـ٦ ص٢٣٤ .
(٢) أخرجه مسلم وأحمد في المسند – انظر فتح الباري جـ٦ ص٢٣٢ .
(٣) شرح ملا علي القاري على الفقه الأكبر ص١١، العقائد الإسلامية – سيد سابق ص١١١، وفتح الباري جـ٦ ص٢٣٢ .

مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ [مريم : ١٦ – ١٧] .

وفي حديث جبريل المشهور، حين جاء يعلم الصحابة معنى الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة، ذكر عمر بن الخطاب " أنه جاء على هيئة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، وأنه جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه ثم شرع في السؤال (١) .

ومن صفاتهم الخَلْقيّة التي أخبرنا الله بها أنه جعل لهم أجنحة، يتفاوتون في أعدادها، فقال سبحانه : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر : ١]
وقد أخرج مسلم والبخاري عن عبد الله بن مسعود " أن رسول الله ﷺ رأى جبريل # له ستمائة جناح (٢) .

هذا هو ما أخبرنا به ربنا تبارك وتعالى عن هذه المخلوقات الكريمة، من حيث خلقتها، ونؤمن به كما جاء، ولا نسأل عن غيره، ولو كان في التفصيل نفع لعباد الله لما حجب عنهم معرفته، فهو اللطيف الرحيم بهم، يعلمهم الحق والخير .

عباد مكرمون :

وأما علاقتهم بالله، فهي علاقة العبودية الخالصة، والطاعة والامتثال، والخضوع المطلق لأوامره عز وجل، لا ينتسبون إليه سبحانه إلا بهذه النسبة، فهم ليسوا آلهة من دونه سبحانه، ولا ذرية له ولا بنات، كما قال المشركون من قبل، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٦ – ٢٨] . وقال تعالى : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل : ٥٠]، وقال أيضاً : ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم : ٦] . فهم خلق من مخلوقات الله الكثيرة، يطيعونه سبحانه ولا يقدرون على شيء من تلقاء أنفسهم، وهم لا يستطيعون أن يقترحوا على الله شيئا بفضل قوتهم، وهم منقطعون دائماً لعبادة الله وطاعة أمره، قال

---
(١) تقدم تخريجه في ص٥ .
(٢) انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ٦ ص٢٤٢ .

تعالى : ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ۞ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۞ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات : ١٦٤ – ١٦٦] .

وإذا كانت هذه حقيقة أمرهم، فمن الشرك بالله أن يعبدوا، أو يستعان بهم أو يعتقد أن لهم من الأمر شيئا، قال تعالى : ﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٨٠] .

علاقتهم بالكون والإنسان :

وإذا كانت تلك هي صلتهم بربهم : عبودية كاملة له سبحانه، وطاعة تامة لأوامره عز وجل، فإن صلتهم بالكون والإنسان هي فرع تلك العبودية، وتلك الطاعة . ذلك أن عبادتهم لله كما أخبر سبحانه، لا تقتصر على تسبيحهم بحمد الله، وتمجيدهم له، وإنما تشتمل على تنفيذ إرادته جل وعلا بتدبير أمور الكون، ورعايته، بكل ما فيه من مخلوقات، وما فيه من حركة ونشاط، وما فيه من حياة وجماد، وما فيه من قوانين ونواميس، وإنفاذ قدره وفق قضائه في هذه المخلوقات كلها، وتنفيذ إرادته سبحانه في مراقبة وتسجيل كل ما يحدث في الكون من حركات إرادية وغير إرادية : فهم الموكلون بالسموات والأرض، وكل حركة في العالم تدخل في اختصاصهم (١) كما أراد خالقهم تبارك وتعالى، كما قال سبحانه : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ [النازعـات : ٥]، وكما قال : ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾ [الذاريات : ٤] . وهي الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل عليهم السلام (٢) . وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات وأنه سبحانه وكل بالشمس والقمر ملائكة، وبالأفلاك ملائكة، وبالجبال ملائكة، وبالسحاب ملائكة، وبالمطر ملائكة وبالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، وبالموت ملائكة . ووكل بكل عبد ملائكة، يحفونه، وبكل مخلوق، وبكل حوادث الكون وظواهره ملائكة (٣) .

ولا ينافي هذا ما يلاحظ في الكون من قوانين وأسباب يرتبط بعضها ببعض لأن هذه القوانين والأسباب إنما هي مخلوقات الله، والملائكة موكلة بها أيضا، وموكلة برعايتها، كما ترعى المخلوقات الأخرى، ولولا إرادة الله في حفظ هذه الأسباب والقوانين، ولولا

(١) إغاثة اللهفان جـ٢ ص١٢٠، شرح العقيدة الطحاوية ص٣٣٥ .
(٢) إغاثة اللهفان ص١٢٠ .
(٣) إغاثة جـ٢ ص١٢٠، ١٢١، شرح العقيدة الطحاوية ص٣٣٥ .

قدره في تسخير الملائكة للحفاظ عليها، فإن العقل لا يستلزم أبداً بقاءها على هذه الآماد الطويلة في انتظامها وتناسقها .

وأما الإنسان فيدخل بحياته الفطرية في تلك الرعاية، التي وكل الله سبحانه الملائكة بها، لأنه مخلوق من مخلوقات الله في الكون، بل هو المخلوق الذي سخر الله له ما في الكون كله، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ﴾ [لقمان : ٢٠] . فحفظ الملائكة ورعايتها للسموات والأرض وما فيهن رعاية له، وعَون له على القيام بحق الخلافة ومسؤليتها .

وفوق هذا فإن للملائكة أعمالاً أخرى في حياة الإنسان الإرادية، هدفها — كما حدده الله لهم — هداية البشر، وإسعادهم، ومساعدتهم على عبادة الله وعونهم على اختيار الهدى والصلاح، واجتناب الشر والفساد والضلال : فهم الذين اختارهم رب العالمين لإيصال هداه إلى أهل الأرض عن طريق رسله الكرام، والملك المختار لهذه المهمة هو جبريل # قال تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء : ١٩٢ — ١٩٤] .

وَهم يلازمون الإنسان في حياته كلها، وجميع صحبتهم للإنسان لإسعاده وهدايته يلهمونه الحق والخير، ويحثونه عليهما، فقد قال المصطفى عليه الصلاة والسلام : " إن للشيطان لمة (١) بابن آدم، وللملك لمة : فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد من ذلك شيئا فليعلم أنه من الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان "، ثم قرأ : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٦٨] (٢) .

كما أخبرنا عز وجل أنه سخرهم للدعاء للمؤمنين والاستغفار لهم فقال سبحانه : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۞ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ

---

(١) اللمة هي الخطرة بالقلب، وتكون لمة الشيطان بوسوسته للإنسان بالسوء، ولمة الملك بإيحائه بالخير .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي وقال عنه : حسن غريب والنسائي وابن حبان عن ابن مسعود — انظر : فيض القدير للمناوي جـ٢ ص٤٤٩ .

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر : ٧ – ٩] . ويقول رسول الله ﷺ : " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان يترلان، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً " (١) .

وهم يشجعون العبد على طاعة ربه، وعبادته، ويحببونه بالذكر والقرآن، ويحثونه على العلم والخير، ويحضرون صلاته وقرآنه، وفي ذلك كله أحاديث صحيحة، من ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة " أن النبي ﷺ قال : " صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه بضعا وعشرين درجة، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد، لا ينهزه إلا الصلاة، لا يريد إلا الصلاة، لم يخطو خطوة، إلا رفع بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه، يقولون : اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، اللهم تب عليه، ما لم يؤذ فيه، ما لم يحدث فيه " (٢) . وعن أبي هريرة " عن النبي ﷺ : " الملائكة يتعاقبون، ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وفي صلاة العصر، ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم : كيف تركتم عبادي ؟ فقالوا : تركناهم يصلون وأتيناهم يصلون " (٣) .

وفي حضورهم مجالس الذكر قال رسول الله ﷺ : " إن لله ملائكة يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم، قال : فيحفوهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال : فيسألهم رهم عز وجل وهو أعلم منهم : ما يقول عبادي ؟ قال : تقول : يسبحونك، ويكبرونك ويحمدونك قال : فيقول : هل رأوني ؟ قال : فيقولون : لا والله ما رأوك . قال : فيقول : كيف لو رأوني ؟ قال : يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدا، وأكثر لك تسبيحا . قال : يقول : فما يسألوني ؟ قال : يقولون : يسألونك الجنة، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون لا والله يا رب ما رأوها قال : فيقول : فكيف لو أنهم رؤوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة قال :

(١) متفق عليه – انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ٣ ص٢٣٧ .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم . انظر فتح الباري جـ١ ص٤٤٨، وصحيح مسلم بشرح النووي جـ٥ ص١٦٥ .

(٣) متفق عليه واللفظ للبخاري – انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ٦ ص٢٣٩ .

فمم يتعوذون ... قال : يقولون : من النار . يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها . قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشدد منها فرارا وأشد لها مخافة، قال : فأشهدكم أني قد غفرت لهم . قال : يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال : هم الجلساء لا يشقى جليسهم " (١) .

وفي تشجيعهم لأهل العلم قال رسول الله ﷺ : " ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع " (٢) .

وهم أيضا يثبتون العبد على العمل الصالح، وخاصة الجهاد في سبيل الله تعالى، كما قال الله عز وجل : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال : ١٢] .

ومن أعمالهم التي أخبرنا عنها رب العالمين، مما له أثر عظيم في تقويم حياة العباد وحفظهم من المعصية والشر، ما وكل إليهم من مراقبة أعمال العباد وكتابتها بعد إحصائها، فقال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۞ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [قّ : ١٦ – ١٨] . وقال أيضاً : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار : ١٠ – ١٢] . وقال أيضاً : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف : ٨٠] .

وفي ختام الكلام عن علاقة الملائكة بالإنسان، وأثرهم في أعماله الإرادية، وغير الإرادية نثبت كلمة جامعة لابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى عن هذا الموضوع فقد قال في كتابه (إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان) : (والملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره، لهم وله شأن آخر : فإنهم موكلون بتخليقه ونقله من طور إلى طور، وتصويره، وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث، وكتابة رزقه وعمله، وأجله وشقاوته، وسعادته، وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله، وحفظه في حياته، وقبض روحه عند وفاته، وعرضها على خالقه وفاطره، وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ،

---

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري – انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ١١ ص١٧٥، ١٧٦ .

(٢) رواه الترمذي وصححه، ابن ماجه واللفظ له، وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد – انظر الترغيب والترهيب جـ١ ص١٠٤ .

وبعد البعث، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب، وهم المثبتون للعبد المؤمن بإذن الله والمعلمون له ما ينفعه، والمقاتلون الذابون عنه وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة، وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه إليه، وينهونه عن الشر، ويحذرونه منه . فهم أولياؤه وأنصاره، وحفظته ومعلموه، وناصحوه، والداعون له، والمستغفرون له، وهم الذين يصلون عليه ما دام في طاعة ربه، ويصلون عليه ما دام يعلم الناس الخير، ويبشرونه بكرامة الله تعالى في منامه، وعند موته، ويوم بعثه . وهم الذين يزهدونه في الدنيا، ويرغبونه في الآخرة، وهم الذين يذكرونه إذا نسي وينشطونه إذا كسل، ويثبتونه إذا جزع . وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته . فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، تتترل بالأمر من عنده في أقطار العالم، وتصعد إليه بالأمر) (١) .

عدد الملائكة :

وهم كثر، لا يحصي عددهم إلا الله، قال تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر : ٣١] . وأخرج الترمذي وابن ماجه والبزار من حديث أبي ذر مرفوعا : " أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد " (٢) . وفي حديث المعراج قال رسول الله ﷺ : " فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل فقال : هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك .. " (٣) .

الإيمان بالملائكة تفصيلي وإجمالي :

ويجب الإيمان بالملائكة التي وردت أسماؤهم في الكتاب أو في السنة بالتفصيل . ومن هؤلاء رؤساؤهم الثلاث : جبريل، وميكائيل، وإسرافيل (٤) . وجبريل هو الملك

---

(١) إغاثة الهفان من مصايد الشيطان، جـ٢ ص١٢٥، ١٢٦ .
(٢) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري جـ٦ ص٢٣٢ .
(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري جـ٦ ص٢٣٣ .
(٤) إغاثة اللهفان جـ٢ ص١٢٢ . الكواشف الجلية عن معاني الواسطية ص٣٦ .

الموكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح (١)، وقد ورد ذكره هو وميكائيل في القرآن الكريم، قال تعالى : ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٩٧ – ٩٨] . وقد أثنى الله سبحانه عليه في القرآن أحسن الثناء، ووصفه بأجمل الصفات، من ذلك قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ، الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۞ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير : ١٥ – ٢١]، وقال تعالى في وصفه : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٢)﴾ [النجم : ٥ – ٦] . وأما ميكائيل فهو الملك الموكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان (٣) . وأما إسرافيل فهو الملك الموكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم (٤) . ومن الملائكة الذين ورد ذكرهم في القرآن مالك خازن النار . قال تعالى : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف : ٧٧]، كما ورد ذكره في الحديث الصحيح (٥) .

فهؤلاء وغيرهم ممن ورد ذكر أسمائهم في أحاديث ثبتت صحتها يجب الإيمان بهم، وبما نيط بهم من الوظائف والأعمال . وأما الملائكة الذين لم يرد ذكرهم، فيجب أن نؤمن بهم بصورة إجمالية، ونؤمن بما ذكر من أصنافهم، وأفعالهم، في القرآن والسنة (٦) . فنؤمن بالكرام الكاتبين الذين جعلهم الله علينا حافظين، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَاماً كَاتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار : ١٠ – ١٢]، وكما قال أيضاً : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد : ١١] . وكما قال : ﴿أَمْ

(١) إغاثة اللهفان جـ٢ ص١٢٢ .

(٢) المقصود بالمرة : صحة الجسم وسلامته من الآفات والعاهات – إغاثة اللهفان جـ٢ ص١٢ .

(٣) إغاثة اللهفان جـ٢ ص١٢٢، أصول الإيمان لمحمد بن عبد الوهاب ص١٤ .

(٤) انظر المرجعين السابقين .

(٥) انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ٦ ص٢٤٢ .

(٦) أفرد الإمام البخاري بابا خاصا لما ورد من الأحاديث الصحيحة في ذكر الملائكة وقد ذكر فيه ما يزيد عن ثلاثين حديثا – انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ٦ ص٢٣٢ – ٢٤٣ .

يَحۡسَبُونَ أَنَّا لا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَاهُمۡ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ [الزخرف : ٨٠] . وقد ورد في بعض كتب التفسير، أنهم اثنان عن اليمين وعن الشمال، يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من أمامه وواحد من ورائه، فهو بين أربعة ملائكة (١) . وروى الإمام مسلم والإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود " قال : قال رسول الله ﷺ : " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة، قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي، لكن الله أعانني عليه، فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير " (٢) .

ونؤمن كذلك بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين، قال تعالى : ﴿قُلۡ يَتَوَفَّاكُمۡ مَلَكُ الۡمَوۡتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ [السجدة : ١١]، ولم يصرح القرآن باسمه، ولا الأحاديث الصحيحة، وجاء في بعض الآثار تسميته بعزرائيل (٣)، فالله أعلم .

ونؤمن بحملة العرش الذين أخبر عنهم الله في القرآن فقال سبحانه : ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة : ١٧] ومنهم إسرافيل الذي ينفخ في الصور (٤) .

ونؤمن كذلك بالملائكة الموكلين بالنار - أعاذنا الله منها - وهم الزبانية، ومقدموهم تسعة عشر، قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادۡعُوا رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡماً مِنَ الۡعَذَابِ﴾ [غافر : ٤٩] . وقال تعالى : ﴿عَلَيۡهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعۡصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم : ٦] .

وقال أيضاً : ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ۞ وَمَا جَعَلۡنَا أَصۡحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً ...﴾ [المدثر : ٣٠ — ٣١] . ونؤمن أيضاً بالملائكة الموكلين بالجنان الذين يهيئون الضيافة

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٣٩ .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٧ ص١٥٧ . ومعنى (اسلم) أي استسلم وانقاد لي، ولهذا قال (فلا يأمرني إلا بخير) وليس المقصود أن الشيطان آمن لأن الشياطين لا تكون مؤمنة .

وقد روي بضم الميم، فيكون الضمير فيه عائداً إلى النبي ﷺ أي : أعانني عليه، فأنا أسلم منه، ولا يؤثر علي — شرح العقيدة الطحاوية ص٤٣٩ .

(٣) أصول الإيمان لمحمد بن عباد الوهاب ص١٤ .

(٤) أصول الإيمان ص ١٤ .

لساكنيها . من ملابس ومآكل ومشارب ومصانع وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

أثر الإيمان بالملائكة في حياة الإنسان :

تقدم أن الله سبحانه لم يطلعنا على شيء من غيبه إلا وفيه نعمة عظيمة على الخلق وكان من فضله جل وعلا أن عرفنا بهذه المخلوقات الكريمة . والإيمان بها هو من الإيمان بالغيب الذي وصف به المتقون، قال تعالى : ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة : ١ – ٣] .

وللإيمان بالملائكة آثار عظيمة في حياة المؤمن :

منها : أن الله سبحانه جنبنا ما أطلعنا من أمر هذه الأرواح المؤمنة وأفعالها الوقوع في الخرافات والأوهام التي وقع فيها من لا يؤمنون بالغيب، ولا يتلقون معارفهم عن الوحي الإلهي .

ومنها : الإستقامة على أمر الله عز وجل، فإن من يستشعر بقلبه وجود الملائكة جنود الرحمن، ويؤمن برقابتهم لأعماله وأقواله، وشهادتهم على كل ما يصدر عنه ليستحي من الله ومن جنوده، فلا يخالفه ولا يعصيه، لا في العلانية، ولا في السر إذ كيف له ذلك وهو يعلم أن كل شيء محسوب ومكتوب ومشهود عليه .

ومنها : الصبر، ومواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى، وعدم اليأس والشعور بالأنس، والطمأنينة . فهذه المعاني من لوازم الإيمان بالملائكة، وما أخبر الله من أفعالها وأحوالها : فعندما يضل الركب عن الطريق، وتسود الجاهلية الجهلاء ويصبح المؤمن غريبا في وطنه، وبين أهله وقومه، ويجد منهم الصدود والاستهزاء، والتخذيل والتثبيط عن طاعة الله والاستقامة على أمره، في هذه الغربة يجد المؤمن أنيسا ورفيقاً، يصحبه ويرافقه ويواسيه، ويصبره، ويطمأنه، ويشجعه على مواصلة السير على درب الهدى، فهذه جنود الله معه : تعبد الله كما يعبد، وتتجه إلى خالق السموات والأرض كما يتجه، وتبارك خطواته، وتشد من أزره، وتذكره بالخير عند ربه فهو إذاً ليس وحده في الطريق إلى الله، ولكنه يسير مع الركب العظيم، ومع الأكثرية من مخلوقات الله عز وجل : مع الملائكة الكرام، ومع الأنبياء عليهم السلام، ومع السموات والأرض فهو أكثر رفيقا وهو الأقوى سندا . فتجعله هذه المشاعر الصادقة صابراً مطمئنا، لا يزيده صدود الناس، إلا ثباتا وجهادا .

فانظر يا أخي، كم أنعم الله علينا بخلق الملائكة، وكم أنعم علينا بالإيمان بهم مما له أشد الأثر في قلوبنا وأعمالنا واستقامة حياتنا . والإيمان بهم تصديق لقرآن الله، ولرسوله الصادق الأمين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

الإيمان بالأنبياء والمرسلين

ومن أركان الإيمان: الإيمان بأنبياء الله ورسله.

ومعناه: الإيمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله وأنبيائه، والإيمان بأن الله عز وجل أرسل رسلاً سواهم، وأنبياء لا يعلم عددهم وأسماءهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم. قال جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وقال أيضاً: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ [يونس: ٤٧].

الأنبياء والرسل (١) المذكورون في القرآن:

والمذكورون في القرآن الكريم من الأنبياء والرسل خمسة وعشرون، وهم: آدم ونوح وإدريس وصالح وإبراهيم وهود ولوط ويونس وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون واليسع وذو الكفل وداود وزكريا وسليمان وإلياس ويحيى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد ورد ذكر ثمانية عشر منهم في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ – ٨٦].

وورد ذكر الآخرين في مواضع من القرآن: قال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾ [هود: ٥٠، الأعراف: ٦٥].

---

(١) النبي هو كل من أوحي إليه من الله تعالى، سواء أمر بتبليغ غيره، أو لم يؤمر، فإن لم يؤمر بالتبليغ فهو نبي وليس رسولا، وإن أمر بالتبليغ فهو نبي ورسول، وهكذا فإن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا – انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص١٦٧، وشرح ملا علي القاري على الفقه الأكبر ص٦٠.

وقال : ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ [هود : ٦١، الأعراف : ٧٣] . وقال ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ [هود : ٨٤، الأعراف : ٨٥] .

وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً﴾ [آل عمران : ٣٣] .

وقال : ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٥] .

وقال : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩] .

فهؤلاء الرسل والأنبياء يجب الإيمان برسالتهم ونبوتهم تفصيلا، بمعنى أن الإنسان لو عرض عليه واحد منهم، لم ينكر نبوته، ولا رسالته، إن كان رسولا، فمن أنكر نبوة واحد منهم، أو أنكر رسالة من بعث منهم برسالة، كفر (١) .

وأما الأنبياء والرسل الذين لم يقصهم القرآن علينا، فقد أمرنا أن نؤمن بهم إجمالا . وليس لنا أن نقول برسالة أحد من البشر أو نبوته ما دام القرآن لم يذكره في عداد الأنبياء والرسل، ولم يخبرنا به رسول الله ﷺ .

أولو العزم (٢) من الرسل :

وأولو العزم من الرسل، كما ذكر كثير من العلماء، خمسة هم : محمد، وإبراهيم، وموسى، ونوح، وعيسى، عليهم أفضل الصلاة والسلام (٣) . وقد ذكرهم الله تعالى في قوله : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب : ٧] .

(١) غير أن العامي لا يحكم عليه بالكفر إلا إذا كان إنكاره بعد تعلمه – شرح البيجوري علي الجوهرة ص٤٧ .

(٢) أصل العزم في الأمر : الجد والاجتهاد فيه – انظر المصباح المنير . وقد ورد في القرآن الإشارة إلى أن من أهم خصال العزم الصبر وتقوى الله : قال تعالى : ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران : ١٨٦] . وقال أيضاً : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . وقال أيضا : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طـه : ١١٥] .

(٣) انظر الأسئلة والأجوبة الأصولية ص٢٢، شرح العقيدة الطحاوية ص٣٤٩ .

موضوع الرسالة :

ويجب علينا أن نؤمن بأن الله بعث رسله إلى الخلق لتبشيرهم وإنذارهم، تبشيرهم برضوان الله وثوابه وجنته، إن آمنوا به وبرسله وأطاعوه، وإنذارهم من غضب الله إن كفروا وعصوا . قال عز وجل : ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام : ٤٨ — ٤٩] .

كما يجب علينا أن نؤمن بأن جميع هؤلاء الرسل بعثهم الله لتحقيق غرض أساسي واحد هو عبادة الله عز وجل، وإقامة دينه، وتوحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فقد قال سبحانه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥]، وقال أيضاً : ﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣] . وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦] .

الواجب علينا نحو الرسل :

ويجب علينا تصديق رسل الله جميعاً، بعد الإيمان بهم وبرسالتهم، وأن لا نفرق بينهم، فمن فرق بين رسل الله، فآمن ببعضهم، وكفر بالآخرين، أو صدق بعضهم وكذب بعضاً، كان من الكافرين، بنص القرآن الكريم، قال عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ۝ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً﴾ [النساء : ١٥٠ — ١٥١] (١) .

كما يجب علينا أن نؤمن بأن كل رسول أرسله الله أدى أمانته، وبلغ رسالته على الوجه الأكمل، وبينها بيانا واضحا شافيا كافيا .

---

(١) وقال الإمام الطبري عند قوله : ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ...﴾ يعني أنهم يقولون : نصدق بهذا ونكذب بهذا، كما فعلت اليهود من تكذيبهم عيسى ومحمدا ﷺ وتصديقهم بموسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم، وكما فعلت النصارى من تكذيبهم محمدا ﷺ وتصديقهم بعيسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم — انظر تفسير الطبري جـ٩ ص٣٥٢ .

ويجب علينا طاعتهم، وعدم مخالفتهم، لأن ذلك من طاعة الله سبحانه، قال تعالى : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] . وقال أيضاً : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء : ٦٤] .

ويجب علينا أن نعتقد بأنهم أكمل الخلق علما وعملا، وأصدقهم، وأكملهم أخلاقا وأن الله سبحانه خصهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحد، وأنه عصمهم ونزههم عن الكذب والخيانة والكتمان والتقصير في التبليغ، وعن الكبائر كلها والصغائر (١) . وقد تقع منهم زلات وخطيئات، أي عثرات بسيطة بالنسبة إلى ما هم عليه من علو المقامات، كما وقع لآدم # في أكله من الشجرة على وجه النسيان (٢) . ولكنهم لا يقرون عليها بل يوفقون للتوبة منها .

كما يجب علينا أن نؤمن بأن رسل الله جميعاً كانوا رجالاً من البشر، فلم يكونوا من الملائكة، و لم يبعث الله أنثى . قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء : ٧] .

ونؤمن أن الله سبحانه لم يخصهم بطبائع أخرى غير الطبائع البشرية، وإنما اختارهم سبحانه من الرجال، الذين يأكلون ويشربون، ويمشون في الأسواق، وينامون ويجلسون ويضحكون، ولهم أزواج وذرية، ويتعرضون للأذى، وتمتد إليهم أيدي الظلمة، وينالهم الاضطهاد، وأنهم يموتون، وقد يقتلون بغير حق، وأنهم يتألمون ويصيبهم المرض وسائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية بين الخلق . وقد دل على ذلك كثير من النصوص، منها : قوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٤] . وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان : ٢٠] . وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد : ٣٨] . وقوله تعالى : ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾

---

(١) انظر : الفقه الأكبر وشرحه لملا علي القاري ص٥٦ .

(٢) انظر الفقه الأكبر لأبي حنيفة وشرحه لملا علي القاري ص٥٧، وشرح العقائد النفسية ص٤٦٧ .

[المائدة : ٧٥] . وقد قال رسول الله ﷺ : " ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد وأتزوج النساء " (١) .

وكان ﷺ يمرض ويتألم، وكان يصيبه الحر والبرد والجوع والعطش والغضب والضجر والتعب، ونحو ذلك مما لا نقص عليه فيه (٢) .

ونؤمن أنهم لا يملكون شيئا من خصائص الألوهية، فلا يتصرفون في الكون، ولا يملكون النفع أو الضرر، ولا يؤثرون في إرادة الله تعالى، ولا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه، قال تعالى : ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

وقال أيضاً : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجـــن : ٢٦ - ٢٧] . وإنما خصهم الله عز وجل بمؤهلات من المزايا والفضائل والأخلاق، تؤهلهم لتلقي الوحي، والاضطلاع بأعباء الرسالة ليكونوا قدوة للناس وأسوة، يقتدى بهم في أمور الدين والدنيا، فيجب علينا، أن نؤمن بأن رسل الله معصومون عن أية نقيصة تقدح في دينهم وطاعتهم لله جل وعلا، أو في مقدرتهم على تبليغ الرسالة التي حملوها (٣) . فقد قال سبحانه في حقهم : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ* أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام : ٨٩ – ٩٠]، فهم قد كلمهم الله سبحانه في الأمانة والصدق والفطانة والتبليغ وغيرها من الأخلاق التي لا بد منها للقيام بالحمل الذي حملهم الله إياه، وبالمسؤولية التي أناطها بهم . وقد شهد الله تعالى لهم بالصدق، فقال عز شأنه عن إسماعيل # : ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ [مريم : ٥٤]، وقال عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ [مريم : ٤١] إلى غير ذلك من الآيات الربانية التي شهدت لهم بالصدق والهدى .

---

(١) أخرجه البخاري في أول كتاب النكاح .

(٢) يظهر ذلك جليا من دراسة سيرته عليه الصلاة والسلام، وقد أفردت مصنفات وكتب جليلة في شمائله ﷺ وأخباره وأحواله – انظر مثلا كتاب الترمذي "الشمائل النبوية"، وكتاب "الوفا بأحوال المصطفى" لابن الجوزي، وغيرها .

(٣) انظر شرح النووي على صحيح مسلم جـــ٣ ص٥٣ .

ويجب علينا أن نؤمن بأن الله سبحانه أيدهم بالمعجزات الباهرات، والآيات الظاهرات، الدالة على صدقهم فيما جاءوا به من عند ربهم تبارك وتعالى . والمعجزات هي ما يجريه الله على أيدي رسله وأنبيائه من خوارق العادات التي يتحدَّوْن بها العباد (١) . فنؤمن بكل ما ذكر في القرآن الكريم منها، وبما وردت فيه الأحاجيث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

وهذا القدر من المزايا يتساوى فيه جميع من اصطفى الله من الرسل، ونؤمن مع هذه المماثلة أن الله فضل بعضهم على بعض، لقوله عز من قائل : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة : ٢٥٣] . ونؤمن أن أفضلهم وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا محمد بن عبد الله ﷺ، وقد فسر بعض السلف قوله تعالى : ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ بأنه سيدنا محمد ﷺ (٢) وفي ذلك أحاديث صحيحة، منها : ما صح عن أبي هريرة " أن رسول الله ﷺ قال : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع " (٣) . وما رواه واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم " (٤) . فهذه الأحاديث وغيرها تدل بوضوح على أن محمد بن عبد الله ﷺ هو أفضل الخلق كلهم (٥) .

---

(١) انظر لمع الأدلة لإمام الحرمين ص١١٠ .

(٢) انظر تفسير الطبري جـ٥ ص٣٧٨ .

(٣) أخرجه الإمام مسلم وغيره : انظر صحيح بشرح النووي جـ١٥ ص٣٧، ٣٨ .

(٤) أخرجه الإمام مسلم والترمذي، وقال عنه : حديث حسن صحيح – انظر : صحيح مسلم بشرح النووي جـ٥ ص٢٦، والترمذي بشرح ابن العربي المالكي جـ١٣ ص١٠٢، ١٠٣ .

(٥) وأما ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : "لا تفضلوني على موسى" وهو حديث متفق عليه، فالجواب عليه أن المذموم الذي نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام هو التفضيل على وجه الفخر، أو على وجه الانتقاص بالمفضول، فإن الحديث المذكور كان له سبب يدل على هذا، فإنه كان قد قال يهودي : لا والذي اصطفى موسى على البشر فلطمه، مسلم، وقال : اتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، فجاء اليهودي واشتكى من المسلم الذي لطمه، فقال النبي ﷺ هذا – وعلى هذا أيضا يحمل قوله ﷺ "لا

الإيمان بمحمد ﷺ :

ويجب علينا أن نؤمن بأن محمد بن عبد الله ﷺ نبي الله ورسوله وعبده وصفيه، ولم يعبد صنما، ولم يشرك بالله طرفة عين قط، ولم يرتكب صغيرة ولا كبيرة قط (١) .

ونؤمن أنه خاتم الأنبياء، لما ورد في كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ : فأما القرآن فقد قال سبحانه : ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب : ٤٠] . وأما السنة، فقد قال ﷺ : " مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضوع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة، قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين " (٢)، وقال أيضاً : " أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحي بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي (٣)، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي " (٤) .

ونعتقد اعتقاداً جازماً أنه لا نبوه بعده ﷺ وأن كل من ادعاها بعده فهو كذاب، قال رسول الله ﷺ : " وأنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي " (٥) .

كذلك يجب أن نؤمن بأنه عليه الصلاة واسلام إمام المتقين، الذي يقتدى به في الخير كله، وأنه وحده الجدير بالاقتداء والتأسي به دون غيره، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] . وقال أيضاً : ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء : ٦٥] .

تفضلوا بين أنبياء الله" — انظر صحيح مسلم وشرح النووي عليه جــ١٥ ص٣٧، ١٢٠، وشرح العقيدة الطحاوية ص١٧٠، ١٧١ .

(١) انظر الفقه الأكبر مع شرحه لملا علي القاري ص٥٩ — ٦١ .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم — انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج١٥ ص٥١ .

(٣) ورد في رواية أخرى " يحشر الناس على قدمي "، ومعناها : يحشرون على أثري وزمان نبوتي وليس بعدي نبي، وقيل : يتبعوني — انظر شرح النووي على صحيح مسلم ج١٥ ص١٠٥ .

(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم — انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج١٥ ص١٠٤ .

(٥) أخرجه مسلم — شرح العقيدة الطحاوية ص١٦٨ .

كما نؤمن أنه عليه الصلاة والسلام حبيب الرحمن، وأن له أعلى مراتب محبة الله عز وجل، وهي الخلة، فقد قال رسول الله ﷺ : " لو كنت متخذا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبي وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلاً " (١) .

كما يجب أن نعتقد أنه مبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى بالحق والهدى : فقد حكى الله سبحانه في القرآن قول الجن : ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف : ٣١] .

وأما أنه صلوات الله وسلامه عليه مبعوث للناس جميعاً، فقد قال سبحانه وتعالى في ذلك : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سبأ : ٢٨]، وقال : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف : ١٥٨] وقال أيضاً : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان : ١] .

وقال ﷺ : " فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون " (٢) . وقال شارح العقيدة الطحاوية : " وكونه ﷺ مبعوثا إلى الناس كافة معلوم من دين الإسلام بالضرورة " (٣) .

ويجب علينا أن نقدم محبته على الوالد والولد والنفس (٤)، عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين " (٥) . وعن عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب " فقال له عمر : يا رسول الله : لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي . فقال النبي ﷺ : " لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٥ ص١٥٢ .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم – انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج٥ ص٥ . هذا وقد ذكر ابن الجوزي كثيرا مما فضل به محمد ﷺ على عدد الأنبياء والرسل، في آخر الجزء الأول من الوفا بأحوال المصطفى .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص١٧٨ .

(٤) انظر الوفا بأحوال المصطفى جـ١ ص٣٨٢ .

(٥) متفق عليه – انظر : صحيح البخاري جـ١ ص٤٩، وصحيح مسلم بشرح النووي جـ٢ ص١٥ .

"، قال عمر : فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي . فقال النبي ﷺ : " الآن يا عمر " (١) .

كذلك يجب علينا أن نؤمن بأن الله جل وعلا قد أيده بالمعجزات الدالة بيقين على صدقه ﷺ في كل ما جاء به، وأن القرآن العظيم معجزته الباهرة، تحدى به العالمين، فعجزوا عن الإتيان بمثله، أو بمثل، بعض منه، قال تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٣ – ٢٤] .

ونؤمن أن الله عز وجل أيده بالمعجزات الحسية، المذكورة في الأحاديث الصحيحة، مثل انشقاق القمر، وتسليم الحجر عليه، وحنين الجذع إليه، ونبو الماء من بين أصابعه، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل، وشهادة الشاة المشوية أمامه، وإظلال السحاب له قبل مبعثه، وما كان من حال أبي جهل وصخرته حين أراد أن يضربها على رأسه، وما كان من شاة أم معبد حين مسح بيده المباركة على ضرعها، ورميه التراب في وجوه المشركين، وإصابتهم به، وإخباره بالمغيبات التي وقعت كما أخبر عليه الصلاة والسلام، واستجابة الله سبحانه لدعائه، وعصمته من القتل، وغير ذلك مما ألفت فيه الكتب، وصنفت فيه المصنفات الواسعة (٢) .

وقد ورد في معجزاته الحسية أخبار كثيرة، وبعضها متواتر، وكثير منها مشهور وهي في مجموعها تفيد العلم اليقيني، بوقوع تلك المعجزات أولا، وبصدق هذا الرسول صلوات الله وسلامه عليه (٣) .

كما نؤمن أن الله سبحانه قد أيده بالحجج البالغة، والأدلة الظاهرة، الماثلة في ذاته وصفاته وأخلاقه .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان والنذور .

(٢) تجد هذه المعجزات وغيرها من دلائل نبوة محمد ﷺ في كثير من كتب السيرة، والحديث، كما أفرد البخاري بابا لذلك سماه "باب علامات النبوة "، وكذلك صنع مسلم بن الحجاج القشيري في باب "معجزات الرسول ﷺ"، وأفرد لها بعض العلماء مؤلفات خاصة مثل : كتاب "دلائل النبوة" للإمام أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني حلية الأولياء، وكتاب "أعلام النبوة" لأبي الحسن علي بن محمد الماروي، وكتاب "دلائل النبوة" للبيهقي، وكتاب "الوفا بأحوال المصطفى" لابن الجوزي .

(٣) انظر : الوفا بأحوال المصطفى جـ١ ص٣٣٩ .

فنؤمن أن الله عز وجل حباه خلقة وصورة، يحكم المتفرس فيه بأنها دالة على نبوته، وصدقه عليه الصلاة والسلام (١)، وما أحسن قول حسان بن ثابت " :

لو لم يكن فيه آيات مبينة   كانت بديهته تأتيك بالخبر

ونؤمن بأن الله سبحانه وتعالى حباه أخلاق القرآن كلها، مما يدل على صدقه وتأييد الله له، فما سمع أحد منه كذبا، لا في أمور الدين، ولا في أمور الدنيا، ولا قبل البعثة ولا بعدها، ولو صدر عنه شيء من ذلك مرة واحدة لاجتهد أعداؤه في نشره وإظهاره . وما فعل فعلا قبيحا أو منفرا، لا قبل النبوة ولا بعدها، وما فر عن أحد من أعدائه مهما عظم الخوف واشتد الأمر مثل يوم أحد ويوم الأحزاب . وكان عظيم الرحمة والشفقة بأمته، حتى خاطبه ربه تبارك وتعالى بالتخفيف من ذلك، كما قال تعالى : ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر : ٨]، وقال أيضاً : ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨]، وكان في أعظم درجات الكرم والسخاء، وكان زاهدا في الدنيا، قانعا باليسير منها، لا يدخر شيئا، وكان في غاية الفصاحة، وأعطي جوامع الكلم، وكان حليما صفوحا، لا يغضب إلا لله تعالى، متواضعا للمؤمنين، عابدا لله، مجاهدا في سبيله متوكلا عليه . وقد ظل عليه صلوات الله وسلامه على صفاته وأخلاقه الربانية من أول عمره إلى آخره، ما غير ولا بدل، وهذا ما أشار إليه تعالى في قوله : ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [صّ : ٨٦] . والمتكلف لا يمكنه الثبات على ذلك طول عمره . وقد كان في هذه الخصال وغيرها من الأخلاق الكريمة، في كل واحدة منها في الغاية القصوى من الكمال ولا يتفق ذلك لأحد من الخلق، غير أولئك الذين عصمهم الله تعالى . فكان اجتماع هذه الصفات والأخلاق له عليه الصلاة والسلام من أعظم دلائل نبوته (٢) .

ولهذا فإنا نجد كثيرا من العقلاء قد حكموا بصدقه عليه الصلاة والسلام، لما يعرفونه من أخلاقه، وصدقه، وسيرته العطرة : فهذه خديجة رضي الله تعالى عنها، لما كانت تعلم من النبي ﷺ أنه الصادق الأمين، فعندما أخبرها بما لقيه من الوحي، وقال

(١) إيثار الحق على الخلق ص٨٠ .
(٢) انظر إيثار الحق على الخلق ص٨٠ .

لها : " إني قد خشيت على نفسي "، قالت : " كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق " (١) .

وكذلك هرقل ملك الروم، فإن النبي ﷺ لما كتب إليه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام، طلب من كان في بلاده من العرب، وكان أبو سفيان في طائفة من قريش في تجارة إلى بلاد الشام، فاستدعاهم هرقل إلى مجلسه، وحوله عظماء الروم ودعا بترجمانه وشرع يسألهم عن أحوال النبي ﷺ فيصل بعدما سمع منهم إلى نتيجة قاطعة، وهي : أن ما سمع من أحوال محمد ﷺ وصفاته وسيرته فيهم لتدل على صدقه فيما جاء به، وأنه نبي مرسل . ومن المفيد في هذا المقام أن نثبت هذا الحوار الذي دار بين هرقل وأبي سفيان كما نقله إمام المحدثين وأميرهم، البخاري في صحيحه، لما فيه من العظمة والعبرة، والدليل على أن رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام وأتم التسليم، قد أنعم عليه ربه تبارك وتعالى بالحجج البالغة والبراهين القاطعة على صدقه، الماثلة في أخلاقه وصفاته وأحواله، فضلا عما أيده به من القرآن العظيم والمعجزات الباهرة : فقد قال البخاري رحمه الله تعالى : " حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، قال : أخبرنا شعيب عن الزهري، قال : أخبرنا عبيد الله بن عبد الله عن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارا بالشام في المدة (٢) التي كان رسول الله ﷺ هادن فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه :

فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟

فقال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسبا .

فقال : أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره . ثم قال لترجمانه : قل لهم : إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه – فو الله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبا لكذبت عنه (٣) – ثم كان أول ما سألني عنه أن :

قال : كيف نسبه فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسب .

قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

قلت : لا .

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟

---

(١) أخرجه البخاري – انظر : صحيح البخاري مع فتح الباري جـ١ ص٢٠ .

(٢) يعني مدة صلح الحديبية .

(٣) الكلام لأبي سفيان .

قلت : لا .
قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟
قلت : بل ضعفاؤهم .
قال : أيزيدون أم ينقصون ؟
قال : بل يزيدون .
قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟
قلت : لا .
قلت : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟
قلت : لا .
قال : فهل يغدر ؟
قلت : لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها .
قال أبو سفيان : و لم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة .
قال هرقل : فهل قاتلتموه ؟
قلت : نعم .
قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟
قلت : الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه .
قال : ماذا يأمركم ؟
قلت : يقول اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه، فذكرن أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها . وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت : رجل يأتي بقول قبله . وسألتك : هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قل لو كان من آبائه ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل . وسألتك : أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب . وسألتك : هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك : بم يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع

قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظنه أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه ... " (١) .

(١) انظر صحبح البخاري مع فتح الباري ص٢٦ – ٣١ .

الإيمان بكتب الله عز وجل

ومن أركان الإيمان، أن نؤمن بالكتب التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله . فكما أن الله عز وجل قد أنزل القرآن على محمد ﷺ فقد أنزل كتبه من قبل على سائر الرسل .

ومن هذه الكتب ما سماه الله في القرآن الكريم، ومنها ما لم يسم . والذي أخبرنا به عز وجل منها :

١- التوراة التي أنزلت على موسى # حيث قال سبحانه : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة : ٤٤] .

٢- والإنجيل الذي نزل على عيسى # حيث قال تعالى : ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة : ٤٦] .

٣- والزبور الذي نزل على داود # قال تعالى : ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ [الإسراء : ٥٥] .

٤- والصحف التي أنزلها الله على إبراهيم وموسى، التي أخبر عنها الله تعالى بقوله : ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۞ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۞ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۞ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۞ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ۞ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم : ٣٦ – ٤٢] .

وبقوله أيضاً : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ۞ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۞ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۞ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۞ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى : ١٤ – ١٩] .

وأما الكتب الأخرى التي نزلت على سائر الرسل، فلم يخبرنا الله تعالى عن أسمائها، وإنما أخبرنا سبحانه أن لكل نبي أرسله الله، رسالة بلغها قومه، فقال : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة : ٢١٣] فيجب علينا أن نؤمن بهذه الكتب التي لم تسم

إجمالا، ولا يجوز لنا أن ننسب كتاباً إلى الله تعالى سوى ما نسبه إلى نفسه مما أخبرنا عنه في القرآن الكريم .

كما يجب أن نؤمن بأن هذه الكتب نزلت بالحق والنور والهدى، وتوحيد الله سبحانه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأن ما نسب إليها مما يخالف ذلك إنما هو من تحريف البشر وصنعهم . قال تعالى عن التوراة : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ﴾ [المائدة : ٤٤] . وقال تعالى عن الإنجيل : ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة : ٤٦] .

ويجب علينا أن نؤمن بأن القرآن العظيم هو آخر كتاب نزل من عند الله تعالى، وأن الله عز وجل قد خصه بمزايا تميز بها عن جميع ما تقدمه من الكتب المنزلة من أهمها :

١- أنه تضمن خلاصة التعاليم الإلهية، وجاء مؤيدا ومصدقا لما جاء في الكتب السابقة من توحيد الله وعبادته ووجوب طاعته . وجمع كل ما كان متفرقا في تلك الكتب من الحسنات والفضائل . وجاء مهيمنا ورقيبا، يقر ما فيها من حق، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتغيير، قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة : ٤٨]، وأنه جاء بشريعة عامة للبشر فيها كل ما يلزمهم لسعادتهم في الدارين، نسخ بها جميع الشرائع العملية الخاصة بالأقوام السابقة، وأثبت فيها الأحكام النهائية الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان .

٢- إن القرآن هو الكتاب الرباني الوحيد الذي تعهد الله بحفظه، فقال عز من قائل : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩]، وقال أيضاً : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤١ – ٤٢] .

وهذه مزية متفرعة عن مزية أخرى، وهي أن القرآن أنزله الله على رسوله محمد ﷺ للناس كافة، وليس خاصا بقوم معينين، كما كانت الكتب السابقة فكان حفظه من التحريف، وصيانته من عبث الناس، ليبقى ما فيه حجة الله على الناس، قائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وأما الكتب الأخرى، فقد وجه الكلام في كل واحد منها إلى أمة خاصة دون سائر الأمم . وهي وإن اتفقت في أصل الدين، إلا أن ما نزل فيها من الشرائع والأحكام كان خاصا بأزمنة معينة وأقوام معينين، قال تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾

[المائدة : ٤٨] . لذلك لم يتعهد الله سبحانه بحفظ أي منها على مدى الأزمان كما هو الحال بالنسبة للقرآن . بل أخبر عز وجل في آخر كتبه عن التحريف الذي وقع على تلك الكتب : فعن التحريف والتغيير الذي أدخله اليهود على التوراة قال سبحانه : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٧٥] . وقال أيضاً : ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء : ٤٦] .

وأما عن التحريف الذي أدخله النصارى على الإنجيل قال تعالى : ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۞ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة : ١٤ – ١٥] .

هذا ومن التحريفات التي أدخلها اليهود والنصارى في دينهم ما زعمه اليهود من أن العزيز ابن الله سبحانه، وما زعمه النصارى أن المسيح ابن الله، قال تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة : ٣٠] . فصحح لهم القرآن هذا الانحراف الذي صنعوه بأنفسهم، فبين لهم أن الله سبحانه منزه عن أن يكون له ولد، فقال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ١ – ٤] . وقرر أن الرسل جميعا بشر، خصهم الله بالوحي، وبما يؤهلهم لتلقيه وتبليغه للناس، قال سبحانه مخاطبا رسوله ﷺ : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف : ١١٠] .

ومن التحريف الذي اقترفه النصارى، وأخبرنا به الله عز وجل في القرآن الكريم ما أدخلوه على حقيقة النبوة، من تأليه جماعة منهم لعيسى ابن مريم، وقول بعضهم بالتثليث، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة : ٧٢] . وقال أيضاً : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة : ٧٣] فجاء القرآن الكريم، وبين هذا التحريف وبين العقيدة السليمة عن عيسى وأمه، فقال

تعالى : ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة : ٧٥] .

والحق الذي لا يماري فيه منصف أنه لا يوجد اليوم على ظهر الأرض كتاب تصلح نسبته إلى الخالق تبارك وتعالى سوى القرآن الكريم يدل على هذه الحقيقة أدلة حسية فضلا عما أخبر به القرآن عن التحريف الواقع في الكتب الموجودة، من هذه الأدلة :

أ- أن الكتب التي نزلت قبل القرآن، قد ضاعت نسختها الأصلية، ولم يبق في أيدي الناس إلا تراجمها . أما القرآن فإنه لا يزال محفوظا بسوره وآياته وكلماته وحركاته، كما تلاه جبريل على رسول الله ﷺ وكما تلاه رسول الله ﷺ على صحابته رضوان الله عليهم (١) .

ب- أن هذه الكتب قد اختلط فيها كلام الله بكلام الناس : من تفسير وتاريخ وسير الأنبياء وتلاميذهم، واستنباطات الفقهاء، فلا يعرف فيها كلام الله من كلام البشر . وأما القرآن فهو جميعه كلام الله تعالى، ولم يختلط به غيره من حديث الرسول ﷺ أو أقوال الصحابة، أو غيرهم، (٢) قال أبو الوفا علي بن عقيل : " إذا أردت أن تعلم أن القرآن ليس من قول رسول ﷺ إنما هو ملقى عليه، فانظر إلى كلامه كيف يمتاز عن القرآن، وتلمح ما بين الكلامين والأسلوبين، ومعلوم أن كلام الإنسان يتشابه، وما للنبي ﷺ كلمة تشاكل القرآن " (٣)، وقال أيضاً : " ومن إعجاز القرآن أنه لا يمكن أحد أن يستخرج منه آية قد أخذ معناها من كلام قد سبق، فإنه ما زال الناس يكشف بعضهم عن بعض، فيقال مثلا، المتنبي أخذ من البحتري " (٤) .

جـــ- أن تلك الكتب ليس منها كتاب تصح نسبته إلى الرسول الذي ينسب إليه، فليس لأي منها سند تاريخي موثوق، فالأسفار الموجودة ضمن ما يسمى بالعهد القديم، ويطلق عليه التوراة، إنما دونت بعد موسى # بقرون عديدة يقول محمد فريد وجدي نقلا عن دائرة معارف لاروس ما خلاصته : " العلم العصري ولا سيما النقد الألماني أثبت بعد أبحاث مستفيضة في الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات أن التوراة لم يكتبها موسى # وأنها عمل أحبار لم يذكروا اسمهم، ألفوها على التعاقب، معتمدين في تأليفها على روايات سماعية، سمعوها قبل أسر بابل، بل ذهب بعض العلماء إلى أن هذه

(١) مبادئ الإسلام، المودودي ص٧٧ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) انظر : الوفا بأحوال المصطفى جـــ١ ص٢٧٠ .
(٤) المرجع السابق .

الأسفار الخمسة ليس فيها كل الروايات الإسرائيلية، ولكنها تحتوي على إشارات ورموز وحكايات " (١) .

وأما القرآن العظيم فهو الكتاب الوحيد الذي ثبت نسبته بصورة قطعية إلى الرسول الذي أوحي إليه، وهو محمد ﷺ فقد نقل هذا الكتاب بسوره وآياته، وطريقة ترتيبها، وكيفية تلاوته إلى كل عصر جاء بعد عصر نزوله، بالتواتر، بحيث لا يشك في أن القرآن الذي نتلوه هو الذي نزله الله على رسوله الكريم ﷺ (٢) .

د- ومن الأدلة على وقوع التحريف في تلك الكتب تعدد نسخها واختلافها فيما نقلته من الأقوال والآراء (٣) .

هـــ- ومن القرائن القاطعة على وقوع التحريف في هذه الكتب ما تضمنته من العقائد الفاسدة والتصورات الباطلة عن الخلق سبحانه، وعن رسله الكرام عليهم السلام، فإنك تجد فيها تشبيه الخالق بالإنسان، والقدح بالأنبياء بما يمس شرفهم ويتنافى مع عصمتهم (٤) .

وإزاء هذا التحريف والتغيير الذي طرأ على الكتب السابقة، فإن الإيمان بها، يكون بالتصديق أنها من عند الله في أساسها، نزلها على رساله، لنفس الغرض الذي أنزل من أجله القرآن . ولا نؤمن بشيء من محتوياتها أنه من عند الله إلا بما ذكره القرآن أو

---

(١) انظر : العقائد الإسلامية لنديم الملاح ص٥٧ .

(٢) مبادئ الإسلام – المودودي ص٧٨ .

(٣) انظر : العقائد الإسلامية – سيد سابق ص١٦٨، فقد جاء فيها : ويكفي لصحة التدليل على التحريف في الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى الآن، أنها أربعة اختيرت من نحو سبعين إنجيلا، وهذه الأناجيل تناولت الكتابة عن سيرة سيدنا عيسى # ومؤلفوها معروفون، وأسماؤهم مكتوبة عليها، وقد قرر نقاد المسيحيين أنفسهم أن عقائد الإنجيل هي رأي بولس دون سائر الحواريين، ودون أقرب الأقربين إلى عيسى، وقد وجد في مكتبة أمير من الأمراء في باريس نسخة من إنجيل برنابة، وقد طبعته المنار بعد ترجمته إلى العربية وهو يخالف الأناجيل الأربعة مخالفة كبيرة .

(٤) من ذلك ما جاء في التوراة المتداولة، في سفر التكوين ٢٢/٣، ففيه (وقال الرب الإله هوذا الإنسان قد صار كواحد منا، عارفا بالخير والشر) وفيه أيضا : (فحزن الرب أنه عمل الإنسان وتأسف في قلبه) ومما جاء فيه أيضا مما يمس شرف الأنبياء ويتنافى مع عصمتهم ما قالوه عن إبراهيم # إنه كذاب، وإن لوطا زنى بابنتيه، وإن هارون دعا الإسرائيليين إلى عبادة العجل، وأن داود زنا، وأن سليمان عبد الأصنام إرضاء لزوجته، فهل ثم دليل على التحريف أقوى من هذا - نقلا عن العقائد الإسلامية لسيد سابق ص١٦٧ .

الرسول ﷺ . وأما الإيمان بالقرآن الكريم، فيجب علينا أن نؤمن بأنه كلام الله الخالص، وهو الحق، وأن كل لفظ فيه محفوظ، ويجب اتباع أمره، واجتناب نهيه، وتصديق خبره، ورفض ما يخالفه .

الإيمان باليوم الآخر

ومعناه بصورة إجمالية : الإيمان بكل ما أخبر به الله عز وجل في كتابه، وأخبر به رسول الله ﷺ مما يكون بعد الموت من فتنة القبر وعذابه ونعيمه، والبعث والحشر والصحف والحساب والميزان والحوض والصراط والشفاعة والجنة والنار، وما أعد الله تعالى لأهلهما جميعا .

اهتمام القرآن بهذا الركن وحكمته :

ولقد حفل القرآن الكريم بذكر اليوم الآخر، واهتم بتقريره في كل موقع، ونبه إليه في كل مناسبة، وأكد وقوعه بشتى الأساليب العربية .

ومن مظاهر هذا الاهتمام بهذا اليوم العظيم في كتاب الله، أنه كثيرا ما ربط الإيمان به بالإيمان بالله عز وجل، ومن أمثلة ذلك : قوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة : ١٧٧]، وقوله تعالى : ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة : ٦٢]، وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة : ٢٣٢]، وقوله تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة : ٢٩]، وقوله تعالى : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت : ٣٦]، وأمثال هذه الآيات كثير جدا في كتاب الله عز وجل .

ومن مظاهره أيضا، إكثار القرآن من ذكر اليوم الآخر، حتى أنك لا تكاد تمر على صحيفة من صحائف القرآن إلا وتجد فيها حديثا عن اليوم الآخر، وما سيكون فيه من الأحداث والأحوال، بأساليب كثيرة ومتنوعة . كذلك تجد القرآن يفصل أحوال ذلك اليوم تفصيلا قلما تجده في أمور الغيب الأخرى .

ومن مظاهره أيضا كثرة ما سماه الله من الأسماء، التي يدل كل واحد منها على ما سيقع فيه من الأهوال، فمن أسمائه في القرآن : القيامة، والساعة، والآخرة، ويوم الدين، ويوم الحساب، ويوم الفتح، ويوم التلاق، ويوم الجمع، ويوم التغابن، ويوم الخلود، ويوم

الخروج، ويوم الحسرة، ويوم التناد، والآزفة، والطامة، والصاخة، والحاقة، والغاشية، والواقعة وغيرها (١) .

وأما حكمة ذلك الاهتمام البالغ بهذا الركن فمنها :

أن الإيمان باليوم الآخر له أثر عظيم في حياة الإنسان، ذلك أن الإيمان به وبما فيه من جنة ونار وحساب وعقاب، وثواب، وفوز، وخسران له أشد الأثر في توجيه الإنسان وانضباطه والتزامه بالعمل الصالح وتقوى الله عز وجل، وشتان ما بين اثنين : أحدهما لا يعتقد ببعث ولا حساب على أعماله وأقواله، ولا يقيده غير مصلحته الشخصية ومنفعته الذاتية، وآخر يعتقد بيوم يحاكم فيه الإنسان على أعماله وأقواله أمام أعدل العادلين فيثاب على الخير، ويعاقب على الشر . فالأول منفلت من أي ضابط سوى هواه وشهوته، والغاية عنده غاية أنانية تبرر أية وسيلة وأي خلق وأي عمل، مهما كان ضرره . والآخر منضبط في حدود الحق والخير والصلاح، وهي الأمور التي لها وزن واعتبار عند الله في ذلك اليوم، كما قال تعالى : ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف : ٨ – ٩] .

ويشير إلى هذه الحكمة أسلوب القرآن في الربط بين الإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح في كثير من الأحيان، من ذلك قوله تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون : ١ – ٣] .

وقوله عز وجل : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة : ١٨] . وقوله أيضاً : ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۞ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة : ٤٤ – ٤٥] . وقوله تعالى : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة : ٢٢]، وقوله : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الممتحنة : ٦]، وقوله : ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق : ٢]، وقوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام : ٩٢]، وغيرها كثير .

---

(١) انظر : العقائد الإسلامية لسيد سابق ص٢٦١ – ٢٦٤ .

فإنه لما كان الإنسان مفطورا على طلب المصلحة لنفسه، ودفع المفسدة عنها، كان الإيمان باليوم الآخر مقويا للوازع النفسي عنده، ذلك الذي يرغب في الخير ويصد عن الشر . ولذلك كانت عناية القرآن بكثرة التذكير به، والتفنن في تصوره حتى يتعمق ذلك الوازع في قلب المؤمن ويشتد تأثيره .

ولعل من حكمة الاهتمام البالغ بالتذكير باليوم الآخر، كثرة نسيان العباد له، وغفلتهم عنه، بسبب تثاقلهم إلى الأرض، وحبهم لمتاع الدنيا، فيكون الإيمان به وبما فيه من عذاب ونعيم مخففا من الغلو في حب الدنيا، فيعلم العباد أن شهوات الدنيا كلها لا تستحق منهم الطلب والجهد والتنافس فيها، وأن الذي يستحق ذلك منهم إنما هو ما أعد لهم في ذلك اليوم العظيم، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة : ٣٨] .

ولعل من حكمته أيضا أن وجود ذلك اليوم كان وما يزال يثير استغراب الكافرين وتعجبهم، لما يرونه ببصيرتهم القاصرة، من مخالفة البعث لما يرونه من تحول إلى رفات وعظام بعد الموت، قال تعالى عن أمثال هؤلاء : ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۞ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۞ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [قّ : ١ — ٣] . فبين لهم الله سبحانه في كثير من الآيات التي سنذكر بعضها فيما بعد، أن هذا الحس الذي يواجهون به هذه الحقيقة حس عاجز وقاصر، لأن أمثال البعث في حياة الإنسان كثيرة، ولكنها لا تعمي الأبصار، ولكن تعمي القلوب التي في الصدور .

أدلة الإيمان باليوم الآخر ورد شبه المنكرين له :

ولقد دل على الإيمان باليوم الآخر، كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ كما يدل عليه العقل والفطرة السليمة . فأكثر سبحانه من ذكره في كتابه، وأقام عليه الأدلة، ورد شبه المنكرين للبعث في كثير من المواضع، كما فصل في القرآن أمور ذلك اليوم وحوادثه تفصيلا لم يسبق له مثيل في الكتب السابقة . مع أن كل رسول أرسله الله، بشر قومه وأنذرهم بهذا اليوم العظيم، وكفر كل من ينكره أو يشك فيه .

قال تعالى : ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء : ٨٧]، وقال : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة : ١٧٧]، وقال أيضاً : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء : ١٣٦] .

ويخبرنا القرآن عن نوح # أنه قال لقومه : ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ [نوح : ١٧ – ١٨]، وعن إبراهيم # أنه قال : ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء : ٨٢]، وقال سبحانه لموسى # : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى، فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طــه : ١٥ – ١٦] . وقد أمر الله سبحانه نبيه محمدا ﷺ أن يقسم به على البعث في أكثر من موضع، من ذلك قوله تعالى : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن : ٧] .

والذين ينكرون البعث إنما يكذبون رسل الله جميعا، أؤلئك الذين قامت الأدلة العقلية والحسية القاطعة على صدقهم في كل ما أخبروا به، وتكذيبهم في أي خبر حجر على العقل الذي حكم بصدقهم، وتكذيب له، وعناد لا معنى له .

والمنكرون للبعث ليس لهم دليل على إنكارهم، ذلك أنه أمر من أمور الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، والضابط في هذه الأمور أنه لا سبيل لأحد في إثباتها أو إنكارها إلا سبيل واحد، هو إعلام الله عز وجل، فمن قامت الحجج القاطعة على تلقيه من عند الله تعالى، فهو الصادق فيما يخبر به عن شيء من هذه الأمور (١) . وهذا أمر لا يثبت إلا للرسل الكرام، عليهم الصلاة والسلام، فهم الذين أيدهم الله بالمعجزات، وأطلعهم على بعض الغيب، وقد تقدم اتفاقهم على الإخبار باليوم الآخر .

وإنما أثار المنكرون للبعث بعض الشبهات والشكوك حول وجود ذلك اليوم كاستبعادهم العودة إلى الحياة بعد تحولهم إلى رفات وعظام وتراب، فقالوا : كما أخبر الله

---

(١) وهذا الضابط بدهية من بدهيات العقول، فإننا نعلم بالبديهية أنه لا يمكن لأحد أن يثبت أو ينفي وجود شيء في مكان أو زمان إلا بأن يطلع أو يخبره مطلع إذا كان وجود هذا الشيء أو عدمه لا يتناقض مع العقل، وليس مستحيلا في حكمه، فلو أن شخصا من العامة أثبت أو نفى وجود نجم في موقع من مواقع السماء، ولم يخبره عالم فلكي، حكمنا بكذبه، وكذلك أي شخص يزعم عدم وجود اليوم الآخر، نحكم بكذبه، حتى ولو لم يخبرنا بوجوده أحد، فكيف وقد أخبر بذلك من يستحيل في حقهم الكذب، وهم الأنبياء والرسل، والناس كلهم بالنسبة لعالم الغيب عوام، والمطلع عليه هو الله وحده، فلا نتبع في شأنه إلا من علمهم الله، وهم رسله الكرام .

عنه : ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [قٓ : ٣]، وقال تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثـــية : ٢٤]، وشبههم جميعا لا تعدو الاستبعاد والاستعظام والتعجب .

وقد رد الله سبحانه على هذه الشبه، وبين تفاهتها في أكثر من موضع في كتابه العزيز، وبين لهم أن الإيمان بالمعاد لا ينكره العقل، بل يؤيده، ولا يخالف المعهود، بل له أمثلة في حياة الناس، وشواهد من صنع الخالق، من ذلك :

١- قال تعالى : ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء : ٤٩ – ٥٢] .

فانظر إلى هذه الشبهات التي أثاروها، وما يثيره المنكرون في كل عصر لا يتعداها : إنهم يستعظمون على الله تحويل ما تؤول إليه الأجسام من الرفات والعظام إلى خلق جديد يحس ويشعر، ويستكثرون عليه قدرته على ذلك، ويستبعدون هذا الأمر لأنهم لا يعلمون متى هو . وهي شبهات – كما ترى – مبعثها الجهل بطبيعة الحياة والموت والغفلة عن قدرة الله عز وجل، والتعامي عن آثار هذه القدرة المطلقة في الإنشاء من العدم، وكان يكفيهم – لو كانوا يعقلون – أن يتذكروا قدرة الله عندما خلقهم أول مرة، ولم يكونوا شيئا، ليوقنوا بصدق الباري فيما أخبرهم عن المعاد والحساب والثواب والعقاب . فالقضية بسيطة، والجواب مفحم مع بساطته وبداهته : فإن الإنسان قد وجد نفسه مخلوقا بعد أن لم يكن، فلا بد له من خالق أوجده من العدم، ثم تحول من حال إلى حال بمفارقة الحياة، فلا بد من فاعل لهذا التحول، وليس هو إلا الله الذي خلق أول مرة، ولو كان غيره لاستطاع أن يدفع عن نفسه الموت، فإذا أخبر بعد ذلك هذا الخالق المحيي المميت بأنه سيحيي الإنسان مرة أخرى، ويعيد خلقه، كانت مناقشته في ذلك عنادا واستكبارا، قال تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثـــية : ٢٦] .

٢- قال تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً

فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۞ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يــس : ٧٨ – ٨١] .

يقول صاحب شرح العقيدة الطحاوية في شرح هذه الآيات الكريمة : فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة، وبمثلها بألفاظ تشبه هذه الألفاظ في الإيجاز ووضح الأدلة وصحة البرهان لما قدر، فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد اقتضى جوابا، فكان في قوله تعالى : ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ ما وفّى الجواب وأقام الحجة، وأزال الشبهة . ولما أراد سبحانه تأكيد الحجة وزيادة تقريرها، قال : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم ضروريا أن من قدر على هذه وأنه لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق، وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته ومواده وصورته، فكذلك الثاني . فإذا كان تام العلم، كامل القدرة، كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم ؟ . ثم أكد الأمر بحجة قاهرة، وبرهان ظاهر يتضمن جوابا عن سؤال ملحد آخر يقول : العظام إذا صارت رميما عادت طبيعتها باردة يابسة والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة ... فقال سبحانه ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ .

فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج من الشيء ضده، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها، ولا تستعصي عليه، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه . ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر، فإن كل عاقل يعلم أن من قدرعلى العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر . فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتدارا، فقال سبحانه : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾، فالذي أبدع السموات والأرض، على جلالتهما، وعظم شأنهما، وكبر أجسامهما، وسعتهما، وعجيب خلقهما، أقدر على أن يحيي عظاما قد صارت رميما، فيردها إلى حالتها الأولى (١) .

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٦٠، ٤٦١ .

٣- وقال عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج : ٥ – ٧] .

فتدبر هذه الآيات الكريمات من سورة الحج، فإن فيها من الأدلة على البعث والآيات البينات على قدرة الله في إحياء الموتى، ما يمحو كل شك من القلوب، حول هذه الحقيقة، ويزيل كل استغراب، ويفند شبهات المعاندين :

أ- ففيها أولا دليل إنشاء الخلق، وبدئهم من تراب ليس فيه مظهر من مظاهر الحياة وقد تقدم الكلام عن هذا الدليل .

ب- وفيها إبراز لمظهر من مظاهر قدرة الله في خلق الإنسان ونقله من طور إلى طور، وحال إلى حال أخرى تختلف عن الأولى كل الاختلاف، فإن من نقله من النطفة إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم شق سمعه وبصره، وركب فيه الحواس والقوى، والعظام والأعصاب، وغيرها، ثم أحكم خلقه غاية الإحكام، وأخرجه على هذا الشكل والصورة، التي هي أتم الصور وأحسن الأشكال، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤]، كيف يعجز عن بعثه وإعادة الحياة إليه ؟ فليس هذا إلا نقل من حال إلى حال أخرى، والمعاند يرى أمثالها في نفسه، وفي كل إنسان على وجه هذه الأرض .

ولقد نبه الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى، بعد تفسيره للآيات السابقة إلى معنى لطيف تضمنته تلك الآيات، فقال : " وإن هذه الأطوار التي يمر بها الجنين، ثم يمر بها الطفل بعد أن يرى النور لتشير إلى أن الإرادة المدبرة لهذه الأطوار ستدفع بالإنسان إلى حيث يبلغ كماله الممكن في دار الكمال، إذ أن الإنسان لا يبلغ كماله في حياة الأرض، فهو يقف ثم يتراجع " لكيلا يعلم من بعد علم شيئا " فلا بد من دار أخرى يتم فيها تمام الإنسان .

فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة... فهي تدل على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة، وهي تدل على البعث، لأن الإرادة المدبرة تكمل تطوير الإنسان في الدار الآخرة .

هكذا تلتقي نواميس الخلق والإعادة، ونواميس الحياة والبعث، ونواميس الحساب والجزاء، وتشهد كلها بوجود الخالق المدبر الذي ليس في وجوده جدال " (١) .

هذا وفي ذكر أطوار الإنسان، وتكونه من النطفة والعلقة لفتة أخرى : ففيه توجيه أنظار المعاندين، والمنكرين للبعث وإحياء الموتى، إلى أن هذا الفعل الرباني ماثل في كل واحد منهم، وفي كل إنسان، فإنه قبل أن يكون خلقا سويا، كان نطفة من ماء مهين، لا قيمة لها، وعلقة ومضغة، أي قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط، وجميعها مراحل حقيرة أشبه ما يكون فيها الإنسان بالميت، ومع ذلك فإن الله سبحانه يخلق فيها الحياة، ويشكلها، ويودع فيها أسباب الحياة، إلى أن تغدو في نهاية الأمر بشرا سويا، يفكر ويشعر، ويخاصم، ويجادل، فما أشبه هذا الصنيع الرباني بإحياء الموتى الذي يستنكره المنكرون للبعث، ولذلك قال عز وجل : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۞ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة : ٣٧ – ٤٠] .

جـ- وفي الآيات السابقة دليل آخر على البعث، وآية أخرى على قدرة الله في إحياء الموتى : هذه الأرض القاحلة، لا ترى فيها أثرا الحياة، ولا ينبت فيها شيء، فإذا أنزل الله عليها المطر، ظهرت فيها الحياة، وأنبتت من الزروع، وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها . وكما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت : ٣٩]، وقد سئل رسول الله ﷺ : كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : " أما مررت بوادي أهلك ممحلا ؟ قال : بلى ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قال : بلى، قال : فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه " (٢) .

٤- وقال تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٥]، وقال أيضاً : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ [القيامة : ٣٦] .

فهاتان الآيتان وأمثالهما تقرران أن الإيمان بالمعاد، والحساب والجزاء هو من مقتضيات توحيد الله في صفاته الكاملة، وأسمائه الحسنى، فهذا الركن من لوازم الركن الأول من أركان الإيمان، ومن كفر به لم يكن مؤمنا بالله عز وجل، لأن ذلك يسلتزم كفره بحكمة ربه، وعدله في خلقه، وتعطيل صفاته سبحانه وتعالى .

---

(١) في ظلال القرآن – المجلد الخامس ص٥٨٣ .

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه – انظر تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٠٨ وصحيح الجامع الصغير – المجلد الأول ص٤٢٠ .

ومن لوازم هذا الكفر احتقار الإنسان لنفسه، باعتقاده أنه خلق عبثا لا لحكمة بالغة، وأن وجوده في الأرض موقوت محدود بهذا العمر القصير، المليء بالنكد والهموم والمصائب والظلم والبغي والآثام، وأنه يترك سدى، فلا يجزي الظالم بظلمه، والعادل بعدله، والمصلح بإصلاحه، والمفسد بإفساده والمسيء بإساءته، فالإيمان بالبعث واليوم الآخر هو الذي يليق بجلال الله وعدله وحكمته . ويحكم به العقل، وتطمئن إليه الفطرة السليمة﴾ (١) .

تفصيل الإيمان باليوم الآخر :

وإذا كان الإيمان باليوم الآخر من أهم الأركان التي يقوم عليها الإيمان، فإنه لا يتحقق ولا يكون تاما وكاملا، إلا بأمرين :

الأول : أن يؤمن العبد باليوم الآخر بصورة إجمالية، وهذا هو الحد الأدنى لتحصيل هذا الركن من أركان الإيمان .

الثاني : أن يؤمن بكل ما أخبره به رسول الله ﷺ من أمور الغيب التي تكون بعد الموت، ونذكر فيما يلي أهم ما وردت به الأحاديث الصحيحة، والآيات الكريمة من هذه الأمور :

١- فتنة القبر وسؤال الملكين :

فيجب أن نؤمن بما أخبر به الرسول ﷺ من فتنة القبر وسؤال الملكين للإنسان عن ربه ودينه ونبيه، فقد أخبر عليه الصلاة والسلام في الأحاديث الصحيحة أن الناس يمتحنون في قبورهم، فيقال للعبد : من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول المؤمن : ربي الله، والإسلام ديني، ومحمد ﷺ نبي، وأما المرتاب فيقول : لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته، فيضرب ويعذب .

ومن الأحاديث الواردة في ذلك :

ما أخرجه البخاري ومسلم عن أسماء رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : " ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي، حتى الجنة والنار فأوحى إلي أنكم تفتنون في قبوركم، مثل أو قريبا من فتنة المسيح الدجال، يقال : ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن أو الموقن فيقول : هو محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا واتبعنا، هو محمد،

---

(١) الوحي المحمدي ص١٧٨، ١٧٩ . مبادئ الإسلام للمودودي ص٩١، العقائد الإسلامية ص٢٧٩، ٢٨٠، شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس ص١٢٩، ١٣٠ .

ثلاثا، فيقال : نم صالحا، قد علمنا أن كنت لموقنا به . وأما المنافق أو المرتاب فيقول : لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته " (١) .

وما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك " قال : قال رسول الله ﷺ : " إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم، قال : يأتيه ملكان، فيقعدانه، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ قال : فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال : فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة " . قال نبي الله ﷺ : " فيراهما جميعا "، قال قتادة : (وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعا ويملأ عليه خضرا إلى يوم يبعثون . وأما المنافق والكافر، فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال : لا دريت ولا تليت، ويضرب بطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين) (٢) .

وما أخرجه البخاري ومسلم : عن البراء بن عازب " عن النبي ﷺ قال : " يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، قال : نزلت في عذاب القبر، فيقال له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ونبيي محمد ﷺ فذلك قوله عز وجل : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (٣) .

وهناك أحاديث صحيحة كثيرة وردت بإثبات فتنة القبر وسؤال الملكين .

٢- عذاب القبر ونعيمه :

وبعد فتنة القبر يجب أن نؤمن بما أخبر به الصادق عليه الصلاة والسلام من عذاب القبر ونعيمه، وقد تظاهرت على هذا الأمر دلائل من الكتاب والسنة، قال تعالى : ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۞ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر : ٤٥ – ٤٦] .

---

(١) انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ١ ص١٤٨، وهو حديث متفق عليه واللفظ للبخاري .

(٢) متفق عليه – انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٧ ص٢٠٣ وصحيح البخاري مع فتح الباري جـ٣ ص١٨٤ .

(٣) ابراهيم – الآية ٢٧ . والحديث متفق عليه واللفظ لمسلم – انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٧ ص٢٠٤، وصحيح البخاري مع فتح الباري جـ٣ ص١٨١ .

فقد توعد الله سبحانه آل فرعون بنوعين من العذاب :

الأول : أشار إليه بقوله تعالى : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾

الثاني : أشار إليه بقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، وقد عطف الثاني على الأول، والعطف يقتضي التغاير بين المعطوف والمعطوف عليه، فلا بد أن يكون المشار إليه أولاً غير الثاني، فإذا كان العذاب الثاني بعد قيام الساعة، فلا بد أن يكون الأول واقعا بهم ما بين الموت والنشور، وهو عذاب القبر .

وأشار الله عز وجل إلى عذاب يكون بعد الموت في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام : ٩٣]، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية أنه قال : هذا عند الموت، والبسط الضرب، يضربون وجوههم وأدبارهم . قال ابن حجر : ويشهد له قوله تعالى في سورة القتال : ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد : ٢٧]، ثم قال : " هذا وإن كان قبل الدفن فهو من جملة العذاب الواقع قبل يوم القيامة، وإنما أضيف العذاب إلى القبر لكون معظمه يقع فيه " (١) .

وأما الأحاديث الصحيحة المثبتة لعذاب القبر فكثيرة جدا، تبلغ حد التواتر، يقول النووي في شرحه لصحيح مسلم : " إعلم أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر وقد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنة، قال تعالى : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وتظاهرت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ من رواية جماعة من الصحابة في مواطن كثيرة . ولا يمتنع في العقل أن يعيد الله تعالى الحياة في جزء من الجسد، ويعذبه، وإذا لم يمنعه العقل، وورد به الشرع وجب قبوله واعتقاده " (٢) .

وقد أورد الإمام مسلم في صحيحه أحاديث كثيرة، في إثبات عذاب القبر، وسماع النبي ﷺ من يعذب فيه، وسماع الموتى قرع نعال دافنيهم، وكلامه ﷺ لأهل القليب، وقوله : ما أنتم بأسمع منهم، والفسح للميت في قبره إن كان من الناجين، وعرض مقعده من الجنة أو النار عليه، وغير ذلك (٣) .

ومن الأحاديث الواردة في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن زيد بن ثابت قال : " بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له، ونحن معه، إذ حادت به،

(١) انظر فتح الباري جـ٣ ص١٨٠ .
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم جـ١٧ ص٢٢٠، ٢٠١ .
(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٧ ص٢٠٠ – ٢٠٧ .

فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال ﷺ : " من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ فقال رجل : أنا . قال : فمتى مات هؤلاء ؟ قال : ماتوا في الأشراك، فقال : إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه، ثم أقبل علينا بوجهه فقال : تعوذوا بالله من عذاب النار، فقالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر، قال : تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قالوا : نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن . قال تعوذوا بالله من فتنة الدجال، قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجال " (١) .

ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال : مر النبي ﷺ على قبرين فقال : إنها ليعذبان وما يعذبان في كبير، ثم قال : بلى، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما أحدهما فكان لا يستتر من بوله (٢) .

ومن ذلك أيضا ما أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : " إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة " (٣) .

وأما كيفية عذاب القبر ونعيمه، وكيفية عودة الروح إلى الميت، فلا يجوز فيه الزيادة على ما صح عن رسول الله ﷺ .

يقول شارح العقيدة الطحاوية : "وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم في كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول . فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا لا بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا .

وأعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر، أكلته السباع، أو احترق حتى صار رمادا ونسف في الهواء أو صلب أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور، وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك، فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٧ ص٢٠٢ .

(٢) متفق عليه واللفظ للبخاري – انظر صحيح البخاري مع الباري جـ٣ ص١٨٨ .

(٣) متفق عليه – انظر صحيح للبخاري مع فتح الباري جـ٣ ص١١٨، وصحيح مسلم بشرح النووي جـ١٧ ص٢٠٠ .

من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان" (١) .

ويقول ابن القيم : "مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانا، ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم لرب العباد، ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى" (٢) .

٣- أشراط الساعة :

ويجب علينا أن نؤمن أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن موعدها لا يعلمه إلا الله أخفاه عن الناس كلهم، بما فيهم الرسل والأنبياء، وأنه ليس لأحد من سبيل إلى معرفة ما بقي من عمر الدنيا، قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٧] .

ولكن يجب أن نؤمن بما ثبت عن رسول الله ﷺ من علاماتها وأشراطها .

هذا وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه ذكر للساعة علامات صغرى معظمها يدور حول فساد في آخر الزمان، وظهور الفتن بينهم، وبعدهم عن هدى الله وطريق الرسل . وعلامات كبرى .

فأما العلامات الصغرى فقد ورد فيها جملة من الأحاديث الصحيحة نذكر منها :

أ- ما أخرجه البخاري ومسلم من قول الرسول ﷺ : " بعثت أنا والساعة كهاتين "، وأشار بالسبابة والوسطى (٣) . فهذا يدل على أن بعثة الرسول ﷺ وختم النبوة والرسالة به، من علامات قرب الساعة، ففي الحديث دلالة على أن النبي عليه الصلاة والسلام ليس بينه وبين الساعة نبي آخر، فهي تليه، وتأتي بعده، وهذا إخبار بقرب وقوعها (٤) .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٥١، ٤٥٢ .

(٢) العقائد الإسلامية – سيد سابق ص٢٣٧ .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي – أنظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١١ ص ٢٩٣ .

(٤) العقائد الإسلامية لسيد سابق ص ٢٤٥ . فتح الباري جـ ١١ ص ٢٩٣ .

ب- وفي حديث جبريل أنه سأل الرسول ﷺ عن الساعة، فقال ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال : فأخبرني عن أمارتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربتها (١)، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان (٢) .

جـ- وأخرج البخاري عن أبي هريرة " أن رسول الله ﷺ قال : " لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان (٣)، يكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة . وحتى يبعث (٤) دجالون كذابون قريب من ثلاثين (٥) كل يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم (٦)، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان (٧)، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج وهو

---

(١) قال ابن حجر في معنى هذا (أن يكثر العقوق في الأولاد، فيعامل الولد، أمه معاملة السيد أمته، من الإهانة بالسب والضرب والاستخدام، فأطلق عليه ربها مجازا لذلك، أو المراد بالرب المربي، فيكون حقيقة، وهذا أوجه الأوجه عندي، ولأن المقام يدل على أن المراد حالة تكون مع كونها تدل على فساد الأحوال مستغربة . ومحصلة أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور بحيث يصير المربي مربيا والسافل عاليا وهو مناسب لقوله في العلامة الأخرى : أن تصير الحفاة ملوك الأرض) – انظر فتح الباري جـ ١ ص ١٠١ .

(٢) متفق عليه – انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١ ص ٩٩، ١٠٠، وصحيح مسلم بشرح النووي جـ ١ ص ١٥٨ . وعبارة البخاري " أن تلد الأمة ربها " . ومعنى تطاول رعاء الشاء في البنيان قال فيه القرطبي : " المقصود : الإخبار عن تبدل الحال بأن يستولي أهل البادية على الأمر ويتملكوا البلاد بالقهر فتكثر أموالهم وتنصرف هممهم إلى تشييد البنيان والتفاخر به، وقد شاهدنا ذلك في هذه الأزمان " – نقل هذا عن القرطبي ابن حجر في فتح الباري جـ ١ ص ١٠١ .

(٣) قال ابن حجر : المقصود فئة علي ومن معه، وفئة معاوية ومن معه – فتح الباري، جـ ١٢ ص ٧٢ .

(٤) أي يظهر .

(٥) وأمثال هؤلاء الأسود العنسي صاحب صنعاء، ومسيلمة الكذاب صاحب اليمامة، وممن ادعى النبوة طليحة بن خويلد، وسجاح، وقد رجع هذان الأخيران عن دعواهما . ومن هؤلاء من المتأخرين مؤسس القاديانية والبهائية – انظر فتح الباري جـ ١٣ ص ٧٣، والعقائد الإسلامية لسيد سابق ص ٢٤٦ .

(٦) أي يقبض علماء الدين والدعاة إلى الله عز وجل .

(٧) المراد نزع البركة من كل شيء حتى من الزمان، فتكون السنة في بركتها والانتفاع بها كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، واليوم كالساعة – فتح الباري جـ ١٣ ص ١٣ وتيسير الوصول جـ ٤ ص ٩١ .

القتل، وحتى يكثر فيكم المال، فيفيض، حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه، فيقول الذي يعرضه عليه : لا أرب لي به، وحتى يتطاول الناس في البنيان . وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها (١)، فإذا طلعت، ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً .

ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة، وقد انصرف الرجل بلبن لقحته (٢)، فلا يطعمه . ولتقومن الساعة وهو يليط (٣) حوضه فلا يسقي منه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه، فلا يطعمها " (٤) .

د- وعن أنس بن مالك " أن النبي ﷺ قال : " إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويفشو الزنا، ويشرب الخمر، ويكثر النساء، ويقل الرجال حتى ليكون لخمسين امرأة قيم واحد " .

هـ- وعن أبي هريرة " أن رجلا قال لرسول الله ﷺ : متى الساعة ؟ فقال : ﴿إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة﴾ قال : وكيف إضاعتها ؟ قال : " إذا أسند الأمر لغير أهله فانتظر الساعة " (٥) .

و- وعن أبي هريرة أيضا أن النبي ﷺ قال : " لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي نم وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود " (٦) .

وهناك أحاديث صحيحة أخرى ذكرت لنا علامات أخرى تظهر قبل قيام الساعة ويمكن الرجوع إليها في كتب الصحاح (٧) .

---

(١) هذه من العلامات الكبرى وبقية العلامات المذكورة في الحديث صغرى .

(٢) اللقحة : هي الناقة ذات اللبن .

(٣) أي يصلحه بالطين .

(٤) أخرجه البخاري – انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١٣ ص ٧٠ – ٧٦ .

(٥) انظر : البخاري مع فتح الباري جـ ١١ ص ٢٧٩ .

(٦) أخرجه الشيخان : واللفظ لمسلم – انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٨ ص ٤٤ .

(٧) تجد ذلك في الصحيحن، في كتاب الفتن وأشراط الساعة . وكتاب الرقاق وفي مواضع أخرى متفرقة .

وأما العلامات الكبرى فقد ورد في بعض الأخبار الصحيحة عن رسول الله ﷺ ذكر عشر منها، وذكر كحديث حذيفة بن أسيد الغفاري، حيث قال : " اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة . قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ﷺ ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم " (١) .

وفيما يلي نبين لك أهم وأشهر هذه الآيات حسب ما ذكره العلماء، وخاصة شراح الحديث الشريف .

أ- طلوع الشمس من المغرب :

وهذه الآية بداية التغيير الذي يحدثه الله على نظام الكون في الحياة الدنيا، حيث تظهر آيات غير مألوفة للبشر، إيذانا بقرب وقوع الساعة، الذي يكون معه تغيير شامل لنظام الكون، كما ذكره الله سبحانه وتعالى في كثير من سور القرآن الكريم، فأول هذا التغيير كما ورد في كثير من الأحاديث طلوع الشمس من المغرب على خلاف ما نعهده من طلوعها من المشرق، والذي أطلعها من المشرق قادر على تغيير مسارها فهو خالقها ومدبر أمرها .

وقد ورد في بعض الأحاديث الصحيحة عن الرسول ﷺ أن هذه الآية تكون أول العلامات الكبرى ظهورا (٢)، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما

---

(١) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٨ ص ٢٧ ،

(٢) قال ابن حجر فيما يتعلق بترتيب ظهور علامات الساعة الكبرى ما نصه : (فالذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة . في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى بن مريم . وإن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير أحوال العالم العلوي وينتهي ذلك بقيام الساعة، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب ... والحكمة في ذلك أن عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة . فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر تكميلا للمقصود من إغلاق باب التوبة . وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التي تحشر الناس من المشرق إلى المغرب) – فتح الباري جـ ١١ ص ٢٩٦ – ٢٩٧ . فيتحصل من كلام ابن حجر أن الآيات الكبرى ثلاثة أنواع : المؤذنة بتغير الأحوال العامة في الأرض، والمؤذنة بتغير أحوال العالم العلوي، والمؤذنة بقيام الساعة . وأن

أن النبي ﷺ قال : " إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا " (١) .

وقد تقدم في حديث أبي هريرة السابق أن هذه الآية إذا ظهرت، ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها إذا لم تكن قد آمنت من قبل، وهو ما أشار الله تعالى إليه بقوله : ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾ [الأنعام : ١٥٨] وقد قال كثير من المفسرين ما حاصله : معنى الآية، أن الكافر لا ينفعه إيمانه بعد طلوع الشمس من المغرب، وكذلك العاصي لا تنفعه توبته، ومن لم يعمل صالحا من قبل، ولو كان مؤمنا، لا ينفعه العمل بعد طلوعها من المغرب (٢) .

ب- خروج الدابة :

وهذه الآية أشار إليها الله تعالى في القرآن حيث قال عز وجل : ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ [النمل : ٨٢] .

وقد ورد ذكر خروج الدابة في أحاديث كثيرة، بعضها صحيح، وقد تقدم بعضها، وليس في ما صح من تلك الأخبار وصف لهذه الدابة التي يخرجها الله عز وجل قبيل قيام الساعة، وما ذكر من أوصافها في بعض الكتب ورد في روايات لم تبلغ حد الصحة، والمؤمن لا تعنيه معرفة هذه الأوصاف، وحسبه أن يقف عند النص القرآني والحديث الصحيح الذي يفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة، أنه إذا ما انتهى الأجل الذي تنفع فيه التوبة، وحق القول على الباقين، فلم تقبل منهم توبة بعد ذلك، وإنما يقضي عليهم بما هم عليه، عندئذ يخرج الله لهم دابة تكلمهم، وتعرف على المؤمن وعلى الكافر، وإذا كان الناس لا يعهدون تكلم الدواب، فإن الخالق القادر يمكنها من ذلك، فيفهم منها الناس ويعلمون أنها الخارقة المنبئة بقيام الساعة أو اقترابها، وقد كانوا من قبل لا يؤمنون بآيات الله، ولا يصدقون بيوم القيامة (٣) .

المقصود بأولية طلوع الشمس من المغرب الوارد في حديث عبد الله بن عمرو، أنها أول آية من النوع الثاني، وهو النوع الذي إذا ظهر أغلق باب التوبة، وأغلق باب الإيمان .

(١) أخرجه مسلم وأبو داود – انظر فتح الباري جـ ١١ ص ٢٩٧، وسنن أبي داود في باب أمارات الساعة، وتيسير الوصول في باب (أشراط متفرقة) وصحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٨ ص ٧٧ .

(٢) فتح الباري جـ ١١ ص ٢٩٧ .

(٣) في ظلال القرآن – المجلد السادس ص ٣٠٨ .

جـ- ظهور الدجال :

والدجال هو الكذاب شديد الدجل، والدجل في اللغة هو التغطية، وسمي الكذاب دجالا لأنه يغطي الحق بباطله، ومن أمارات الساعة الكبرى ظهور شخص سماه الرسول ﷺ بالدجال، لكثرة تدجيله وكذبه، يدعي الألوهية، ويحاول أن يفتن الناس عن دينهم بما يحدثه من خوارق العادات وعجائب الأمور، بإذن الله سبحانه وتعالى، فيفتن به بعض الناس، ويثبت الله الذين آمنوا، فلا ينخدعون بدجله وضلاله، ثم يأذن الله بالقضاء على فتنته، فيترل عيسى # فيقتله : جاء في شرح النووي على صحيح مسلم : " الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده، وإنه شخص بعينه، ابتلى الله به عباده، وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى، من إحياء الميت الذي يقتله، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه، وجنته وناره، ونهريه، واتباع كنوز الأرض له، وأمره السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك، فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره، ويبطل أمره، ويقتله عيسى ﷺ ويثبت الله الذين آمنوا . هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظار، خلافا لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة، وخلافا لمن ادعى أنه صحيح الوجود، وأن الذي يدعيه مخارف وخيالات لا حقائق لها، وزعموا أنه لو كان حقا لم يوثق بمعجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . وهذا غلط من جميعهم، لأنه لم يدع النبوة، فيكون ما معه كالتصديق له، وإنما يدعي الألوهية، وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله، ووجود دلائل الحدوث فيه، ونقص صورته، وعجزه عن إزالة العور الذي في عينيه، وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه . ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس، لسد الحاجة والفاقة، رغبة في سد الرمق، أو تقية وخوفا من أذاه، لأن فتنته عظيمة جدا تدهش العقول، وتحير الألباب، مع سرعة مروره في الأمر، فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ودلائل الحدوث فيه والنقص، فيصدقه من صدقه في هذه الحالة . ولهذا حذرت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من فتنته، ونبهوا على نقصه، ودلائل إبطاله، وأما أهل التوفيق، فلا يغترون به، ولا يخدعون لما معه، لما ذكرنا من الدلائل المكذبة له، مع ما سبق لهم من العلم بحاله " (١) .

هذا وقد ورد في ذكر الدجال جملة أحاديث صحيحة، نذكر منها :

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : " قام رسول الله ﷺ في الناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال : إني لأنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذره

(١) انظر شرح النووي على صحيح مسلم جـــ ١٨ ص ٥٨، ٥٩ .

قومه، ولكني سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه : إنه أعور وإن الله ليس بأعور " (١) .

روى حذيفة بن اليمان " عن رسول الله ﷺ أنه قال : " لأنا أعلم بما مع الدجال منه : معه نهران يجريان، أحدهما رأي العين ماء أبيض والآخر رأي العين نار تأجج فإما أدركن أحد فليأت النهر الذي يراه نارا، وليغمض ثم ليطأطيء رأسه، فيشرب منه، فإنه ماء بارد وإن الدجال ممسوح العين، عليها ظفرة (٢) غليظة مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب " (٣) .

وعن النواس بن سمعان قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع (٤)، حتى ظنناه في طائفة النخل (٥)، فلما رحنا إليه، عرف ذلك فينا، فقال : ما شأنكم ؟ قلنا : يا رسول الله، ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه، ورفعت، حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال : غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج، ولست فيكم، فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم : إنه شاب قطط (٦)، عينه طافئة، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة (٧) بين الشام والعراق، فعاث يمينا وعاث شمالا، يا عباد الله، فاثبتوا .قلنا : يا رسول الله : وما لبثه في الأرض ؟ قال أربعون يوما : يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم : قلنا : يا رسول الله، فلذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا، اقدروا له قدره، قلنا : يا رسول الله : وما إسراعه في الأرض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم، فيدعوهم، فيؤمنون به، ويستجيبون له، فيأمر السماء، فتمطر والأرض فتنبت، فتروح

(١) انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١٣ ص ٨٠، صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ١٨ ص ٥٩ ،

(٢) بفتح الظاء والفاء، وهي جلدة تغشي البصر، أو لحمة تنبت عند المآقي .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٨ ص ٩١ .

(٤) المقصود : حقر من شأنه بما يتصف به من العور وغيره وبما سيؤول أمره إليه من الاضمحلال، ورفع أي عظم من فتنته والمحنة به، حتى حذر كل نبي من فتنته – انظر شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١٨ ص ٦٣ .

(٥) أي على مقربة من نخل المدينة .

(٦) شديد جعودة الشعر .

(٧) أي سيظهر في مكان بين الشام والعراق .

عليهم سارحتهم (١)، أطول ما كانت ذرى (٢)، وأسبغه ضروعا (٣)، وأمده خواصر (٤)، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين، ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل (٥) . ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين (٦)، رمية الغرض (٧)، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم، فيترل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين (٨)، واضعا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمال كاللؤلؤ، فلا يحل (٩) لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه . فيطلبه حتى يدركه بباب لد، فيقتله ... " (١٠) .

هذه الأحاديث وغيرها حجة لمذهب أهل السنة في وجوب الاعتقاد بظهور الدجال حسب ما أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام، وما وصفه به من الصفات، وما يؤول أمره إليه، وأنه من العلامات الكبرى لقيام الساعة .

فإذا قيل : كيف يجري الله الآيات الباهرة على يده، والمعجزات لا تكون إلا للأنبياء فقد قال الخطابي في الجواب عن هذا التساؤل : " الجواب أنه على سبيل الفتنة للعباد، غذ كان عندهم ما يدل على أنه مبطل غير محق في دعواه، وهو أنه أعور، مكتوب على جبهته كافر يقرؤه كل مسلم، فدعواه داحضة مع وسم الكفر ونقص الذات والقدر، إذ لو كان إلها لأزال ذلك عن وجهه، وآيات الأنبياء سالمة من المعارضة، فلا يشتبهان " (١١) . ويقول ابن حجر : " وفي الدجال مع ذلك دلالة بينة لمن عقل، على كذبه، لأنه ذو أجزاء مؤلفة، وتأثير الصنعة فيه ظاهر، مع ظهور الآفة به من عور عينيه فإذا دعا الناس إلى أنه ربهم، فأسوأ حال من يراه من ذوي العقول أن يعلم أنه لم يكن يسوي خلق غيره

---

(١) السارحة هي الماشية التي تسرح، أي تذهب أول النهار إلى المرعى .
(٢) الذرى، بضم الذال هي الأعالي والأسنمة .
(٣) أي ضروعها كثيرة اللبن .
(٤) أمده خواصر : أي لكثرة امتلائها من الشبع .
(٥) أي كجماعة النحل، واليعاسيب هي ذكور النحل .
(٦) أي قطعتين .
(٧) أي يجعل الجزلتين مقدار رمية الغرض .
(٨) أي ثوبين مصبوغين .
(٩) أي لا يمكن ولا يقع لكافر .
(١٠) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٨ ص ٦٣ وما بعدها .
(١١) نقله ابن حجر في فتح البارب جـ ١٣ ص ٨٩ .

ويعدله، ويحسنه، ولا يدفع النقص عن نفسه، فأقل ما يجب أن يقول : يا من يزعم أنه خالق السماء والأرض صور نفسك وعدل لها، وأزال عنها العاهة فإن زعمت أن الرب لا يحدث في نفسه شيئا فأزل ما هو مكتوب بين عينيك " (١) .

د- نزول عيسى # :

فقد دلت السنة، وأجمعت الأمة على أن عيسى # يترل في آخر الزمان : قرب الساعة، أثناء وجود الدجال، فيقتله، ويحكم بشريعة الإسلام، ويحيي من شأنها ما تركه الناس، ثم يمكث في الأرض ما شاء الله أن يمكث، ثم يموت، ويصلي عليه المسلمون ويدفن، وقد ورد بذلك أحاديث صحيحة كثيرة، تقدم بعضها، فيجب على كل مسلم أن يصدق به، وأن يعتقد بما أخبر به كتاب ربنا من أن عيسى # لم يقتله اليهود وإنما رفعه الله إليه، وأنه لن يموت حتى يترل قبل قيام الساعة، فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ۞ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ۞ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ [النساء : ١٥٧ – ١٥٩] .

فانظر إلى قوله تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ . وفي تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾، قال ابن كثير : " قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه إلا آمن به قبل موت عيسى # . ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح، لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود منن قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم، فقتلوا الشبه، وهم لا يتبينون ذلك، ثم أنه رفعه إليه، وأنه باق حي، وأنه سيترل قبل يوم القيامة كما دلت عليه الأحاديث المتواترة ... فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الختزير، ويضع الجزية، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم ... " (٢) .

ومن الأحاديث الواردة في ذكر نزول عيسى # ما رواه الشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " والذي نفسي بيده ليوشكن أن يترل فيكم ابن مريم "

(١) المرجع السابق .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٧٧ .

حكما عدلاً فيكسر الصليب (١)، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية (٢)، ويفيض المال (٣)، حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا (٤) من الدنيا وما فيها " (٥) . والأحاديث في هذا كثيرة صحيحة (٦) . قال القاضي عياض : " نزول عيسى # وقتله الدجال حق وصحيح عند أهل السنة للأحاديث الصحيحة في ذلك، وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطله، فوجب إثباته . وأنكر ذلك بعض المعتزلة ومن وافقهم، وزعموا أن الأحاديث مردودة بقوله تعالى ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، وبقوله ﷺ " لا نبي بعدي " وبإجماع المسلمين، أنه لا نبي بعد نبينا ﷺ وأن شرعيته مؤبدة إلى يوم القيامة لا تنسخ . وهذا استدلال فاسد، لأنه ليس المراد بنزول عيسى # أنه ينزل نبيا بشرع ينسخ شرعنا، ولا في هذه الأحاديث ولا في غيرها شيء من هذا، بل صحت هذه الأحاديث أنه ينزل يحكم بشرعنا، ويحيي من أمور شرعنا ما هجره الناس " (٧) .

هـ- ظهور يأجوج ومأجوج :

وقد ورد ذكر هذه العلامة في القرآن الكريم، قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ۞ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ۞ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ

---

(١) المراد بذلك أنه # يكسره حقيقة، ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه، وقيل : إن المراد من كسره إظهار كذب النصارى حيث ادعوا أن اليهود صلبوا عيسى # على خشب – انظر الدين الخالص جـ ١ ص ٩٢ .

(٢) المقصود بوضع الجزية : أن عيسى # يسقطها عن أهل الكتاب فلا يقبل منهم إلا الإسلام وليس معنى ذلك أن عيسى # ينسخ حكما من شريعة الإسلام ولكن هذا الحديث يدل على أن قبول الجزية في شريعة الإسلام ملغيا بنزول عيسى # – المرجع السابق جـ ١ ص ٩٣ .

(٣) أي يكثر المال بسبب ما ينشره عيسى # من العدل بين الناس .

(٤) المقصود أن رغبات الناس تقل في اقتناء المال لقصر آمالهم وعلمهم بقرب وقوع الساعة، وتكثر رغبتهم في طاعة الله عز وجل .

(٥) متفق عليه .

(٦) انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ٧ ص ٣٠٢، مطبعة البابي الحلبي وصحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ١٨٩ وصحيح الترمذي جـ ٩ ص ٧٦ وسنن ابن ماجه – المجلد الثاني، كتاب الفتن، مطبعة عيسى البابي الحلبي، والفتح الرباني جـ ٢ ص ١٤٣ الطبعة الأولى .

(٧) شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١٨ ص ٧٥، ٧٦ .

وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴿ آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً﴾ (١) . قال عز وجل : ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ

---

(١) [الكهف : ٩٢ – ٩٨] . ويقول سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآيات : (ونحن لا نستطيع أن نجزم بشيء عن المكان الذي بلغ إليه ذو القرنين ﴿بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ ولا ما هما هذان السدان . كل ما يؤخذ من النص أنه وصل إلى منطقة بين حاجزين طبَيعيين، أو بين سدين صناعيين، تفصلهما فجوة أو ممر، فوجد هنالك قوماً متخلفين ﴿لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ وعندما وجدوه قوياً وتوسموا فيه القدرة والصلاح، عرضوا عليه أن يقيم لهم سداً في وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجموهم من وراء الحاجزين، ويغيرون عليهم من ذلك الممر، فيعيثون في أراضهم فساداً، ولا يقدرون هم على دفعهم وصدهم، وذلك في مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم . وتبعاً للمنهج الصالح الذي أعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد في الأرض فقد رد عليهم عرضهم الذي عرضوه من المال، وتطوع بإقامة السد، ورأى أن أيسر طريق لإقامته هي ردم الممر بين الحاجزين الطبيعيين، فطلب إلى أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾، فجمعوا له قطع الحديد، وكوموها في الفتحة بين الحاجزين، فأصبحا كأنهما صدفتان تغلفان ذلك الكوم بينهما ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ وأصبح الركام بمساواة القمتين ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ على النار لتسخين الحديد ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً﴾ كله لشدة توهجه واحمراره ﴿قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ أي نحاساً مذاباً يتخلل الحديد، ويختلط به، فيزيده صلابة . وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد، فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته وكان هذا الذي هدى الله إليه ذا القرنين، وسجله في كتابه الخالد سبقاً للعلم البشري الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله . بذلك التحم الحاجزين، وأغلق الطريق على يأجوج ومأجوج، ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ يتسوروه ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ فينفذوا منه، وتعذر عليهم أن يهاجموا أولئك القوم الضعاف المتخلفين، فأمنوا واطمأنوا . ونظر ذو القرنين إلى العمل الفخم الذي قام

حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۞ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٩٦ – ٩٧] .

ومما ورد في ذكرهم من الأحاديث الصحيحة ما أخرجه الشيخان عن زينب ابنة جحش رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوماً فزعاً يقول : " لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بأصبعيه : الإبهام والتي تليها " قالت زينب ابنة جحش : يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : " نعم إذا كثر الخبث " (١) .

ومنها ما أخرجه الإمام مسلم وغيره من حديث النواس بن سمعان الذي تقدم ذكره وفيه خبر الدجال ونزول عيسى، وذكر يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء (٢) .

وهناك أحاديث صحيحة أخرى ذكرت يأجوج ومأجوج، ومجموع النصوص الواردة بذكرهم يفيد العلم اليقيني بظهور هذه الأمة المفسدة، في أواخر عمر هذه الدنيا فكان لا بد للمؤمن من تصديق ما ورد به القرآن والخبر الصحيح من أمرهم، وأما تحديد الزمن الذي تظهر فيه هذه الأمة، والتفصيلات المتعلقة بأشكالهم وأوصافهم، ومكان وجودهم قبل ظهورهم، فكل هذا من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله تعالى .

٤- بداية اليوم الآخر :

ويجب أن نؤمن بعد ذلك بما أخبر به الله عز وجل في كتابه الكريم، ولا سيما في سورتي التكوير والانفطار، بكل ما يحدث في آخر يوم من أيام الدنيا، وبدء اليوم الآخر .

به فلم يأخذه البصر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم ولكنه ذكر الله فشكره، ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه، وتبرأ من قوته إلى قوة الله، وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة، فتعود الأرض سطحاً أجرد مستوياً)، ثم قال رحمه الله : (وبعد فمن يأجوج ومأجوج ؟ وأين هم الآن ؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون ؟ كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد في القرآن، وفي بعض الأثر الصحيح . والقرآن يذكر في هذا الموضع ما حكاه من قول ذي القرنين **﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾**) – أنظر في ظلال القرآن – المجلد الخامس، ص ٤١١ – ٤١٣ .

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١٣ ص ٩١ وما بعدها .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٨ ص ٦٨ .

فإن مجموع الآيات الكريمة تدل على أن اليوم الآخر يبدأ بإحداث تغيير عام في هذا الكون فتنشق السماء، وتتناثر النجوم، وتتصادم الكواكب، وتتفتت الأرض، وتغدو صعيداً جرزاً، وتصبح الجبال كثيباً مهيلاً، ويخرب كل شيء، ويدمر كل ما عرفه الناس في هذا الوجود، قال تعالى : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم : ٤٨]، ويكون هذا على إثر النفخة الأولى، ينفخها إسرافيل بأمر ربه، فيصعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله تعالى (١) قال عز وجل : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر : ٦٨] . وقال : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۞ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۞ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۞ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة : ١٣ – ١٦] . وروى أبو هريرة " عن النبي ﷺ أنه قال : " يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول : أنا الملك، أين ملوك الأرض " (٢) .

٥- البعث :

ونؤمن بعدها أن الله سبحانه يأمر بالنفخة الثانية (٣)، فتعود الحياة على إثرها إلى الأموات، وهذا هو يوم البعث وهو إعادة الإنسان روحاً وجسداً كما كان في الدنيا، ثم يخرج الله الناس من الأجداث أحياء فيقول الكفار والمنافقون حينئذ ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يــس : ٥٢]، ويقول المؤمنون، ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يــس : ٥٢]، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن محمداً ﷺ هو أول من يخرج من قبره، فقد قال ﷺ : " يصعق الناس حين يصعقون فأكون أول من قام، فإذا موسى آخذ بالعرش، فما أدري أكان فيمن صعق " (٤) .

---

(١) أنظر فتح الباري ج ١١ ص ٣١٣ .

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١١ ص ٣١٣ .

(٣) أشار الله سبحانه إلى النفخة الأولى والثانية في قوله عز وجل : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۞ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾، فالراجفة هي النفخة الأولى، والرادفة هي الثانية، هكذا ورد من تفسير ابن عباس رضي الله عنهما – أنظر : صحيح البخاري وفتح الباري، ج ١ ص ٣١٠، ٣١١ .

(٤) صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١١ ص ٣١٢ .

٦- الحشر :

ونؤمن أنه يكون الحشر بعد بعث الخلائق وإخراجهم من قبورهم، قال تعالى : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً، وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ [مريم : ٨٥ – ٨٦] .

والحشر هو سوقهم جميعاً إلى الموقف، وهو المكان الذي يقفون فيه انتظاراً لفصل القضاء بينهم . فبعد بعث الناس يأمر الله ملائكته، فتسوقهم إلى المواقف، وحالهم كما خلقوا أول مرة : حفاة غير منتعلين، عراة غير مكتسين، غرلاً غير مختتنين، فقد صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً . قلت : يا رسول الله، ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ﷺ : يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض " (١) .

وروى ابن عباس رضي الله عنهما قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : " يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا، ثم قال : كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدا علينا إنا كنا فاعلين ... إلى آخر الآية، ثم قال : ألا وأن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم . ألا وإنه يجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يا رب أصحابي، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح " (٢)، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم " (٣) .

وفي الموقف يصيب الخلائق كرب شديد، فقد روى المقداد بن الأسود عن رسول الله ﷺ أنه قال : " تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل (٤)، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً، وأشار ﷺ بيده إلى فيه " (٥)، وفي أثناء ذلك يكون أناس في ظل الله عز وجل كما أخبر

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٧ ص ١٩٢، ١٩٣ . صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١١ ص ٣٢٥ .

(٢) أي عيسى عليه الصلاة والسلام .

(٣) أنظر : صحيح البخاري مع فتح الباري، ج ٨ ص ٢٣٠، ج ١١ ص ٣٢٢ .

(٤) قال سليم بن عامر – راوي الحديث عن المقداد – فوالله ما أدري ما يعني بالميل : أمسافة الأرض أم الميل الذي يكتحل به العين . صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٧ ص ١٩٦ .

(٥) المرجع السابق .

المصطفى عليه الصلاة والسلام، فعن أبي هريرة " وأبي سعيد " أن رسول الله ﷺ قال : " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال :إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه " (١) .

فإذا اشتد الأمر بالناس، وعظم الكرب في هذا الموقف العظيم، استشفعوا إلى الله عز وجل بالرسل والأنبياء أن ينقذهم مما هم فيه، ويعجل لهم فصل القضاء وكل رسول يحيلهم على من بعده، حتى يأتون نبينا محمداً ﷺ فيشفع فيهم ويقبل الباري شفاعته (٢)، فينصرف الناس إلى فصل القضاء .

٧- جزاء الأعمال :

ونؤمن بجزاء الأعمال في اليوم الآخر، فيجزى العباد، ويجازون على كل ما كسبوه في الحياة الدنيا من خير أو شر، قال عز وجل : ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور : ٢٥] والدين هو الجزاء، فيقال : كما تدين تدان، أي كما تُجازي تُجازَى (٣)، وقال سبحانه : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص : ٨٤] . وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل :" يا عبادي إنما هي اعمالكم أحصيها لكم،

---

(١) أنظر : صحيح البخاري بحاشية السندي ج ١ ص ١٧٠ وصحيح مسلم بشرح النووي ج ٧ ص ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، واللفظ له . والسنن الكبرى ج ١٠ ص ٨٧، وسنن النسائي ج ٨، ص ٢٢٢، ٢٢٣ .

(٢) وهذه هي الشفاعة العظمى الخاصة بنبينا محمد × من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام . وهي متفق عليها بين الأمة، لأنها ثبتت بالأحاديث الصحيحة، وهي من المقام المحمود الذي وعد به الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ [الإسراء : ٧٩] أنظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥٢، ٢٥٣، أحاديث الشفاعة في صحيح مسلم بشرح النووي ج ٣ ص ٥٤ — ٧٧، وشرح العقيدة الواسطية ص ١٢٨، والعقائد الإسلامية لسيد سابق ص ٢٧٤ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٦٥ .

ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " (١) .

٨- العرض والحساب :

ونؤمن أن الجزاء يكون بعد محاكمة عادلة، يعرض فيها الناس على ربهم، وتقام فيها الحجج عليهم ولهم، ويطلعون على أعمالهم، ويقرؤون صحفهم، فيجب أن نؤمن بالعرض والحساب، وقراءة الكتاب، فجميعها حق، ودل عليها الكتاب والسنة وإجماع علماء المسلمين .

فأما العرض، فدليله قوله تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۞ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۞ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۞ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة : ١٥ – ١٨]، وقوله تعالى : ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف : ٤٨] .

فيجب على كل مسلم أن يؤمن بأن كل عبد يعرض على ربه، فيتولى سبحانه حسابه بنفسه، وبدون وساطة : عن عدي بن حاتم " أن النبي ﷺ قال : " ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان، ثم ينظر فلا يرى شيئاً قدامه، ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة " (٢) .

ويدخل في معنى العرض إبراز الأعمال وإظهارها، فيعرف صاحبها بذنوبه، فإن كان من أهل النجاة، وهو الذي يؤتي كتابه بيمينه، تجاوز الله عن ذنوبه، ولم يناقشه الحساب، وأدخله الجنة، ولم يعذبه بالنار . وأما من كثرت معاصيه، وأوتي كتابه وراء ظهره، فذلك يناقش الحساب، ويسأل عن كل صغيرة وكبيرة، فقد حدثت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : " ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك، فقلت : يا رسول الله : أليس قد قال الله : فاما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب " (٣)، والمراد بالمناقشة الاستقصاء في المحاسبة، والمطالبة بالجليل والحقير وترك المسامحة (٤) .

---

(١) من حديث قدسي طويل رواه مسلم – أنظر رياض الصالحين ص ٦٢، ٦٣ .
(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١١ ص ٣٤٠ .
(٣) صحيح البخاري ج ١١ ص ١٣٨ .
(٤) فتح الباري ج ١١ ص ٣٣٧ .

وأما أخذ العباد صحائف أعمالهم يوم القيامة، وقراءتهم لها، فحق يجب الإيمان به ومن أنكره كفر، قال تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ۞ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [الإسراء : ١٣ — ١٤]، ويجب علينا أن نؤمن بما جاء في قوله تعالى عن هذا الأمر، حيث قال : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ ۞ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ۞ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ۞ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۞ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ۞ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ۞ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ۞ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ [الانشقاق : ٦ — ١٥] .

والمراد بهذه الصحف التي يقرؤها العباد، الكتب التي كتبت فيها الملائكة ما فعلوه في الحياة الدنيا (١)، فقد عرفت أن من أركان الإيمان التصديق بما أخبر به الله سبحانه عن ملائكته وأعمالهم، والإيمان بهم يكون بتصديق كل ما أخبر عنهم ربهم إجمالاً وتفصيلاً . وأنه يجب علينا أن نؤمن بأن الله عز وجل وكل بنا من ملائكته من يحفظنا، ويكتب أعمالنا وأقوالنا، وهم الحافظون الكرام الكاتبون، الذي قال عنهم سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَاماً كَاتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الإنفطار : ١٠ — ١٢] . وقال أيضاً : ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية : ٢٩] . فما يستنسخه هؤلاء الكرام يقرؤه العباد يوم القيامة .

وأما الحساب فالمراد به توقيف الله تعالى العباد، قبل الإنصراف من المحشر، على أعمالهم، وأقوالهم واعتقاداتهم، خيراً كانت أو شراً، وذلك بعد أخذهم صحائفهم فيعرفون على أعمالهم، وما لهم وما عليهم، قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

ثم إن الناس في الحساب متفاوتون :

فمنهم من يحاسب حساباً يسيراً، يعرض عليه عمله، فيطلعه الله على سيئاته، بحيث لا يطلع عليها أحد، ثم يعفو عنه، ويأمر به إلى الجنة .

ومنهم من يناقش الحساب، بأن يسأل عن كل جزئية، ويطالب بالعذر والحجة فلا يقبل منه عذر ولا حجة، فيهلك مع الهالكين، ويأمر الله تعالى منادياً ينادي عليه بسيئات أعماله، فيفتضح بين الخلائق . فعلى المؤمن أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب،

(١) شرح البيجوري على جوهرة التوحيد ص ٢١٢ .

ويبادر بالأعمال الصالحة قبل الأوان، ويؤمن بالحساب ويستعد له، فقد قال تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٧]، وقال رسول الله ﷺ : " لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ؟ وعن عمله فيم فعل فيه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيم أبلاه ؟ " (١) .

وقد دلت الأحاديث الصحيحة أن قوماً من أمة محمد ﷺ يتفضل عليهم ربهم، ويستثنيهم من هذا الحساب، ويدخلهم الجنة من غير حساب ولا عذاب، فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة " أن النبي ﷺ قال : " يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب " (٢) .

وأما كيفية الحساب فنؤمن بما ورد في القرآن عنها، وفي حديث رسول الله ﷺ ولا نزيد ولا ننقص، ولا نسأل عن أكثر مما ورد : فنؤمن أن الله سبحانه يذكر كل عبد بما قدمه في الحياة الدنيا من خير أو شر، ويشهد على العباد جميع من يستشهدهم الله عليهم (٣)، فتشهد الأرض بما حدث على ظهرها، كما قال عز وجل : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۞ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ۞ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۞ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة : ١ – ٨] . فقد ورد عن أبي هريرة " قال : " قرأ رسول الله ﷺ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فقال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : فإن أخبارَها أن تشهد على عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، قال : فهذه أخبارها " (٤) .

---

(١) أخرجه الترمذي وقال عنه حديث حسن صحيح . أنظر صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ج ٩ ص ٢٥٣ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٣ ص ٨٨ .

(٣) قال محمود خطاب السبكي : (واعلم أنه سيشهد على العاصي أحد عشر شاهداً في اليوم المشهود : اللسان والأيدي والأرجل والسمع والبصر والجلد والأرض والليل والنهار، والحفظة الكرام والمال) ثم ساق على ذلك عددا من الآيات والأحاديث – أنظر : الدين الخالص ج ١ ص ١٠٥ وما بعدها .

(٤) رواه الترمذي، وقال حسن غريب – أنظر صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ج٩ ص ٢٦٠ .

ونؤمن أيضاً بأنه يكون في هذا الحساب شهادة الأعضاء : من ألسنة وأيد وأرجل وجلود وغيرها على كل ما فعله العبد، وبما أخبر الله تعالى من تحاور أعداء الله مع هذه الشهود، قال عز وجل : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت : ١٩ – ٢٢] .

ونؤمن أيضاً بما أخبرنا به رسول الله ﷺ من رحمة الله عز وجل بعباده المؤمنين عند الحساب، دون الكافرين، فيخلو سبحانه بعبده المؤمن، ويقرره بذنوبه، ويستر عليه، ولا يناقشه الحساب . فقد ورد أنه قيل لابن عمر رضي الله عنهما : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى - مناجاة الله لعبده المؤمن في الآخرة - ؟ قال : سمعته يقول : " يدنو أحدكم من ربه، حتى يضع كنفه عليه، فيقول : أعملت كذا وكذا ؟ فيقول نعم . ويقول : أعملت كذا وكذا، فيقول : نعم . فيقرره ثم يقول : إني سترت عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، ثم يعطى صحيفة حسناته . وأما الكفار، فينادى على رؤوس الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين " (١) .

٩- الحوض :

ويجب علينا أن نؤمن بما أخبر به المصطفى ﷺ عن الحوض الذي تفضل الله به عليه وعلى أمته، فإن الأحاديث الواردة في ذلك تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة أكثر من ثلاثين صحابيا (٢) .

ويكون أول من يرده نبينا محمد ﷺ ثم ترده بعده أمته، ويطرد عنه الكفار، وطائفة من العصاة وأهل الكبائر (٣) . وذلك بعد الانتهاء من الموقف، بما فيه من أهوال

(١) متفق عليه – أنظر صحيح البخاري مع فتح الباري ج١٣ ص ٤٠٧، ٤٠٨ .

(٢) أنظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥٠، وشرح النووي على صحيح مسلم ج١٥ ص٥٣ وشرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس ص١١٥، شرح البيجوري علي الجوهرة ص٢٢٣، والدين الخالص ج١ ص١١١ .

(٣) الدين الخالص ج١ ص ١١١ .

وعرض وحساب وقراءة الصحف، وغيرها، قال رسول الله ﷺ : " أنا فرطكم " (١) على الحوض، من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً وليردَنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم فيقول ﷺ : إنهم أمتي، فيقال : إنك لا تدري ما عملوا بعدك، فأقول : سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي " (٢) . وعن عقبة بن عامر " أن رسول الله ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال : " إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف أن تتنافسوا فيها " (٣) . وأخرج البخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال : " إني على الحوض حتى أنظر من يرد علي منكم، وسيؤخذ أناس دوني فأقول : يا رب مني ومن أمتي، فيقال : أما شعرت ما عملوا بعدك، والله ما برحوا بعدك يرجعون على أعقابهم " (٤) .

هذا ونؤمن بما ورد في صفته على لسان رسول الله ﷺ ونحمله على ظاهره، لا نزيد عليه ولا ننقص منه، قال شارح العقيدة الطحاوية : (والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض . أنه حوض عظيم، ومورد كريم، يمد من شراب الجنة، من نهر الكوثر، الذي هو أشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك، وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر . وفي بعض الأحاديث : أنه كلما شرب منه وهو في زيادة واتساع .. فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء) (٥) .

ومن الأحاديث الواردة في صفة الحوض ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال : قال النبي ﷺ : " حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من

---

(١) الفرط هو من يتقدم الواردة ليرتاد لهم الماء، ويهيء لهم الأرشية والدلاء والمعنى : أنا متقدكم وسابقكم إلى الحوض .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٥، ص٥٣، ٥٤ .

(٣) متفق عليه – أنظر صحيح البخاري – كتاب الجنائز – باب الصلاة على الشهيد . وصحيح مسلم بشرح النووي ج١٥، ص٥٧ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٥، ص٥٥ .

(٥) شرحح العقيدة الطحاوية ص٢٥١ .

اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه (١) كنجوم السماء، من شرب منها فلا يظمأ أبداً " (٢) .

والأحاديث الصحيحة الواردة في ذكر حوض نبينا ﷺ كثيرة، بلغت حد التواتر وتصديقها من الإيمان، قال القاضي عياض رحمه الله تعالى : (أحاديث الحوض صحيحة، والإيمان به فرض، التصديق به من الإيمان، وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة، لا يتأول، ولا يختلف فيه .. وحديثه متواتر النقل، رواه خلائق من الصحابة فذكره مسلم من رواية ابن عمرو بن العاص وعائشة وأم سلمة وعقبة بن عامر وابن مسعود وحذيفة وحارثة بن وهب، وأبي ذر وثوبان وأنس وجابر بن سمرة، رواه غير مسلم من رواية أبي بكر الصديق، وزيد بن أرقم وأبي أمامه وعبد الله بن زيد وأبي برزة وسويد بن حبلة وعبد الله بن الصنابحي والبراء بن عازب، وأسماء بنت أبي بكر وخولة بنت قيس وغيرهم ... وفي بعض هذا ما يقتضي كون الحديث متواتراً) (٣) .

هذا وقد ورد في بعض الأحاديث الصحيحة أن لكل نبي حوضاً، وأن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها وارداً (٤) .

١٠- الميزان :

ويجب علينا أن نؤمن بما أخبر به الله عز وجل، ورسوله ﷺ من أن أعمال العباد، خيرها وشرها، توزن يوم القيامة بميزان، إظهاراً لعدل الله فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٧] . وقال تعالى : ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف : ٨ – ٩] . وقال أيضاً : ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۞ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة : ٦ – ٩] .

---

(١) أي آنيته أو أباريقه .

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ج١١ ص٣٩٦ – ٣٩٨ . وهو في صحيح مسلم بشرح النووي ج١٥ ص٥٥ .

(٣) نقله عن القاضي عياض النووي في شرحه على صحيح مسلم ج١٥ ص٥٣ .

(٤) أنظر : شرح العقيدة الطحاوية ص١٥١، شرح البيجوري على الجوهرة ص٢٢٣، والدين الخالص ج١ ص١١١ .

وتدل الأخبار على أنه ميزان حقيقي، له كفتان، وأن الله سبحانه يحول أعمال العباد إلى أجسام لها ثقل، فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة (١) . وفي ذلك قال ابن القيم في قصيدته المشهورة :

أفما تصدق أن أعمال العباد تحط يوم العرض في الميزان
وكذلك تثقل تارة وتخف أخرى ذاك في القرآن ذو تبيان
وله لسان كفتان تقيمه والكفتان إليه ناظرتان
ما ذاك أمراً معنوياً بل هو المحسوس حقاً عند ذي الإيمان (٢)

هذا ويكون وزن الأعمال بعد إتمام الحساب، لأن الوزن للجزاء، فيكون بعد المحاسبة التي هي لتقرير الأعمال الحادثة، فيكون الوزن لإظهار مقاديرها، ليكون الجزاء بحسبها (٣) ولكن لا يكون وزن في حق الأنبياء والملائكة، ومن استثناهم الله من الحساب (٤) .

١١- الصراط :

ونؤمن أنه يكون بعد الحساب والميزان انصراف الناس من الموقف، ليمروا فوق الجسر المنصوب على جهنم، وهو الصراط .

والمرور على الصراط عام لجميع الناس : الأنبياء والصديقين، والمؤمنين، والكفار، ومن يحاسب ومن لا يحاسب . ومن استقام على صراط الله الذي هو دين الحق في الدنيا، استقام على هذا الصراط (٥) في الآخرة . وقد ورد في بعض الأحاديث الصحيحة أن الناس يمرون عليه، وتكون سهولة ذلك عليهم بقدر أعمالهم في الحياة الدنيا : فمنهم من يمر كانقضاض الكواكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر يرمل رملاً، فيمرون على قدر أعمالهم، حتى يمر المقل في العمل الصالح، تخريد وتعلق يد،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٧٢، شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس، ص١٢٣، الدين الخالص ج١ ص١٠٧ .

(٢) أنظر قصيدة ابن القيم مع شرحها ج٢ ص٥٩٣ .

(٣) نقل ذلك عن القرطبي شارح العقيدة الطحاوية ص٤٧٢ .

(٤) شرح البيجوري على الجوهرة ص٢١٥ .

(٥) أصل الصراط – الطريق، ويلفظ بالسين أيضاً واشتقاقه من سرط أي ابتلع، وقيل سمي بذلك لأنه يسترط السابلة "المارة"، أي يبتلعهم – أنظر المصباح المنير .

وتخر رجل وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون، فإذا خلصوا قالوا : الحمد لله الذي نجنا منك بعد أن أراناك، لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد (١) .

هذا وقد ورد في ذكر الصراط جملة أحاديث صحيحة، نذكر لك منها هذا الحديث الذي أخرجه الشيخان عن أبي هريرة " :

فقد أخبر أن ناساً قالوا لرسول لله ﷺ : يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : " هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسولا لله، قال : فإنكم ترونه كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت (٢) . الطواغيت، وتبقى لهذه الأمة فيها منافقوها (٣) فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول : أنا ربكم، فيقولون : نعوذ بالله منك (٤)، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون، فيقول : أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا، فيتبعونه، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم، وفي جهنم (٥)، كلاليب (٦)، مثل شوك السعدان (١)، هل

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٧٠، والعقيدة الواسطية مع شرحها لمحمد خليل هراس ص١٢٦ .

(٢) قال أهل اللغة : الطاغوت كل ما عبد من دون الله تعالى – أنظر شرح النووي على صحيح مسلم ج٣ ص١٨ .

(٣) قال العلماء : إنما بقوا في زمرة المؤمنين، لأنهم كانوا في الدنيا متسترين بهم فيستترون بهم أيضاً في الآخرة، ويسلكون مسلكهم، ويدخلون في جملتهم ويتبعونهم ويمشون في نورهم حتى يضرب الله بينهم بسور، ويذهب عنهم نور المؤمنين . حتى يكون مقرهم الدرك الأسفل من النار – أنظر شرح النووي على مسلم ج٣ ص١٩ .

(٤) قال القرطبي في تأويل ذلك : هو مقام هائل يمتحن الله به عباده ليميز الخبيث من الطيب، وذلك أنه لما بقي المنافقون مختلطين بالمؤمنين زاعمين أنهم منهم ظانين أن ذلك يجوز في ذلك الوقت كما جاز في الدنيا امتحنهم الله بأن أتاهم بصورة هائلة قالت للجميع : أنا ربكم، فأجابه المؤمنون بإنكار ذلك لما سبق لهم من معرفته سبحانه وأنه منزه عن صفات هذه الصورة، فلهذا قالوا : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً – نقل هذا عن القرطبي ابن حجر في فتح الباري ج١١ ص٣٨٠، ٣٨١ .

(٥) لفظ البخاري "وبه" أي في الجسر المنصوب على جهنم .

(٦) جمع كلوب بفتح الكاف وضم اللام المشددة، وهو حديدة معطوفة الرأس .

رأيتم السعدان ؟ قالوا نعم يا رسول الله، قال : فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم (٢) فمنهم المؤمن بقي بعمله (٣)، ومنهم المجازى حتى ينجى (٤) .

هذا والمرور على الصراط هو الورود المذكورفي قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم : ٧١] إنه لا ينجو منه أحد كما تقدم، فقد روى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال : " لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد "، الذين بايعوا تحتها، فقالت حفصة ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فقال النبي ﷺ : قد قال الله عز وجل : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم : ٧٢]، فأشار عليه الصلاة والسلام إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها (٥)، فالجميع يمرون من فوق جهنم فوق الصراط وينجي الله المؤمنين، ويذر الظالمين فيها جثياً، ثم إذا عبر المؤمنون الصراط، وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص من بعضهم لبعض، فإذا هذبوا أذن لهم في دخول الجنة، روى أبو سعيد الخدري " عن الرسول ﷺ أنه قال : " يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فو الذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا " (٦) .

١٢- الجنة والنار :

وبعد ذلك كله نؤمن بوجود الجنة والنار، وأنهما مخلوقتان من مخلوقات الله عز وجل أعدهما الله للثواب والعقاب، وأنه سبحانه وتعالى خلقهما قبل الخلق، وأنهما موجودتان الآن، وأنهما باقيتان ولا تبيدان، قال تعالى عن النار : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا

---

(١) نبت له شوكة عظيمة من كل الجوانب .

(٢) يجوز أن يكون المعنى تخطفهم بسبب أعمالهم، ويجوز أن يكون معناه : تخطفهم على قدر أعمالهم شرح النووي على صحيح مسلم ج٣ ص٢١ .

(٣) لفظ البخاري : "فمنهم الموبق بعمله، ومنهم المخردل" أي المقطع أو المصروع .

(٤) جزء من حديث أخرجه الشيخان، واللفظ لمسلم – أنظر صحيح البخاري ج١١ ص٣٦٧ وصحيح مسلم بشرح النووي ج٣ ص١٧ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٧١ .

(٦) صحيح البخاري مع فتح الباري ج١١ ص٣٣٦ .

أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم : ٦] . وقال أيضاً : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [قّ : ٣٠] . وقال عز وجل مخبراً عن بعض ما فيها : ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ، إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ۞ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۞ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۞ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات : ٦٢ – ٦٧] وقال رسول الله ﷺ في وصف النار : " ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، قيل : يا رسول الله : إن كانت لكافية، قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها " (١) وقال عليه الصلاة والسلام في وصف أخف العذاب في النار : " إن أهون النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه " (٢) .

وأما الجنة فقد أكثر الله سبحانه من ذكر نعيمها في كتابه الكريم، من ذلك : قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ۞ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ۞ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ۞ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۞ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان : ٥١ – ٥٧] . وقال أيضاً : ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ، هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۞ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۞ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۞ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق : ٣١ – ٣٥]، وقال أيضاً : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۞ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۞ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ۞ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۞ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۞ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور : ١٧ – ٢٤] . وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن رب العزة تبارك وتعالى في وصف نعيم الجنة : " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ج٦ ص٢٥٦، ٢٥٧، الموطأ ص٦١٤ .

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ج١١ ص٣٦١ .

سمعت ولا خطر على قلب بشر، فاقرأوا إن شئتم : ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ...﴾ .

كذلك نؤمن بما يكون من تحاور وتخاطب بين أهل الجنة وأهل النار، فانظر إلى هذا المشهد في سورة الأعراف : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۞ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف : ٤٤ — ٤٥]، ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف : ٥٠] .

وأما خلود الجنة والنار، وخلود المؤمنين في الأولى والكافرين في الثانية فقد تكرر ذكره والتأكيد عليه في معظم المواقع التي ذكرت فيها الجنة والنار في كتاب الله عز وجل . وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ : " إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي مناد : يا أهل الجنة : لا موت، يا أهل النار : لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم " (١) .

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ج١١ ص٣٥١ .

الإيمان بقضاء الله وقدره

الإيمان بالقدر أحد أركان العقيدة الإسلامية، وهو الركن السادس للإيمان، فمن كفر بقدر الله خرج من دين الله عز وجل .

وقد تقدم حديث عمر " عن رسول الله ﷺ أنه قال – عندما سأله جبريل عن الإيمان - : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره " (١) .

تعريف القضاء والقدر :

اختلفت عبارات العلماء في تعريف القضاء والقدر، فمنهم من جعلهما شيئاً واحداً ومنهم من عرف القضاء تعريفاً مغايراً للقدر، فقال :

القدر : علم الله تعالى بما تكون عليه المخلوقات في المستقبل (٢) .

والقضاء : إيجاد الله تعالى الأشياء حسب علمه وإرادته .

وقد عكس بعضهم، فجعل تعريف القضاء السابق للقدر، وتعريف القدر للقضاء، والأمر محتمل (٣) .

ومن عرفهما تعريفاً واحداً قال : (هو النظام المحكم الذي وضعه الله لهذا الوجود والقوانين العامة، والسنن التي ربط بها الأسباب بمسبباتها) (٤) . وهذا المعنى هو ما وردت به آيات القرآن التي ذكرت القدر، مثل قوله تعالى : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد : ٨] . وقوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر : ٢١]، وقوله تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر : ٤٩] .

وما أجمل جواب الإمام أحمد عندما سئل عن القدر فقال : القدرة قدرة الرحمن يقول ابن القيم في قصيدته الكافية الشافية (٥) :

---

(١) أنظر تخريج الحديث في ص٥ .

(٢) تبسيط العقائد الإسلامية لحسن أيوب ص٧٧ .

(٣) طبري اليقينات الكونية ص١٤٧ .

(٤) العقائد الإسلامية لسيد سابق ص٩٥ .

(٥) شرح قصيدة ابن القيم ج١ ص٢٥٤ .

فحقيقـــة القدر الذي حار الورى في شأنه هـــو قـــدرة الرحمن
واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد لما حكاه عن الرضى الرباني

والحق أن تعريف أحمد رحمه الله تعالى قد كفى وشفى، فالقدر يعني ما قرره الله سبحانه في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران : ١٥٤]، وفي قوله : ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود : ١٢٣]، وفي قوله : ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس : ٨٣]، وقوله : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس : ٣]، وغير ذلك من الآيات التي تدل على أنه لا يحدث شيء في الكون إلا بإرادة الله ومشيئته﴾ .

وعقيدة القدر مبنية في حقيقتها على الإيمان بصفات الله العلى، وأسمائه الحسنى، ومنها : العلم، والقدرة، والإرادة قال تعالى : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٩]، وقال : ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد : ٢] . وقال : ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج : ١٦] .

قال الطحاوي : (وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة العباد إلا ما شاء الله، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره) (١) .

معنى الإيمان بالقدر :

ويجب على كل مسلم أن يؤمن بالقدر، خيره وشره، حلوه ومره .

ويقصد بالإيمان بالقدر الإيمان بعلم الله القديم، والإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة . وفي بيان ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (الإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين :

فالدرجة الأولى :

الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون، بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال . ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق، فأول ما خلق الله القلم، قال له : اكتب، قال ما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص١٥٣ .

لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام وطويت الصحف، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج : ٧٠] .

وأما الدرجة الثانية :

فهي الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة . وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه ما لا يريد، وأنه سبحانه على كل شي قدير من الموجودات والمعدومات، فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره، ولا رب سواه . ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا، وعملوا الصالحات ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد . والعباد فاعلون حقيقة، والله خلق أفعالهم، والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالق قدرتهم وإرادتهم) (١) .

فيتحصل من كلام ابن تيمية رحمه الله أن الإيمان بالقدر يشتمل على أربع مراتب هي :

الأولى : الإيمان بعلم الله القديم وأنه علم أعمال العباد قبل أن يعملوها .

الثانية : كتابة ذلك في اللوح المحفوظ .

الثالثة : مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة .

الرابعة : إيجاد الله لكل المخلوقات، وأنه الخالق وكل ما سواه مخلوق .

هذا وإن تقسيم القدر الذي يجب الإيمان به إلى خير وشر، إنما هو بإضافته إلى الناس والمخلوقات . أما بالنسبة لله عز وجل، فالقدر خير كله، والشر لا ينسب إلى الله (٢) . فعلم الله ومشيئته وكتابته وخلقه للأشياء والحوادث، هذا كله حكمة وعدل ورحمة وخير، فإن الشر لا يدخل في شيء من صفات الله تعالى، ولا أفعاله، ولا يلحق ذاته تبارك وتعالى نقص ولا شر، فله الكمال المطلق والجلال التام (٣)، ولذلك لا يجوز إضافة الشر إلى الله مفرداً، وإنما يجوز أن يدخل الشر في العموم، كقوله تعالى : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾

---

(١) أنظر : الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية ص٣٥٢، ٣٥٣ .

(٢) أنظر : مجموع فتاوى ابن تيمية جـ٨ ص٩٤، ٩٥، وشرح العقيدة الطحاوية ص٢٨٢ والروضة الندية ص٣٥٦ .

(٣) أنظر كتاب الحسنة والسيئة لابن تيمية ص١٩٠، وتيسير العزيز الحميد ص٦٢٥ .

[الزمر : ٦٢] ويجوز أن يضاف إلى السبب كقوله تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق : ١ – ٢]، ويجوز أن يذكر بحذف فاعله، كقوله تعالى فيما حكاه عن الجن : ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن : ١٠] .

والحق أن الله تعالى لم يخلق شراً محضاً من جميع الوجوه، فإن حكمته سبحانه تأبى ذلك، فلا يمكن في جانبه تعالى أن يريد شيئاً يكون فساداً من كل وجه، ولا مصلحة في خلقه بوجه ما، فإنه تعالى بيده الخير كله والشر ليس إليه، بل كل ما إليه فخير، والشر إنما حصل لعدم النسبة إليه، فلو نسب إليه لم يكن شراً، وهو من حيث نسبته إلى الله تعالى خلقاً ومشيئة ليس بشر (١) .

فالمرض مثلاً شر ومصيبة بالنسبة للإنسان عاجلاً، ولكنه خير في الآجل، وخير بالنسبة لله عز وجل لما يعلم ما يعقبه من مغفرة الذنوب، وتطهير النفوس . وكذلك سجن أعداء الله للمؤمنين شر في ظاهره لما فيه من الآلام والمحن، ولكنه تمحيص للنفوس، وتطهير للصفوف، وتربية للأرواح، فضلاً عن الثواب الجزيل والخير العميم . وخلق إبليس فيه حكم كثيرة ظاهرة : كتوبة البشر بعد الزلل، واستخراج عبودية المؤمنين لله تعالى بجهاد إبليس وحزبه، والصبر على إغرائه وإغوائه، والالتجاء إلى حمى الله، واللياذ بركنه الركين (٢) .

---

(١) الدين الخالص ج١ ص١٤٤، الروضة الندية ص٣٥٦ .

(٢) ذكر ابن قيم الجوزية أحكاماً كثيرة مترتبة على خلق إبليس منها :

أ - أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات التي هي أخبث الذوات وسبب كل شر في مقابلة ذات جبريل # التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهي سبب كل خير . وظهرت قدرته سبحانه أيضاً في خلق الليل والنهار والدواء والداء، والحياة والموت، والحسن والقبيح، وغير ذلك مما يدل على أعظم الدلالة كمال قدرته سبحانه .

ب - ظهور آثار أسماء الله القهرية، مثل القهار، والمنتقم، والشديد العقاب، والسريع الحساب، ذي البطش الشديد، والمعز والمذل، فهذه الأسماء والأفعال لا بد من وجود ما تتعلق به، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء .

جـ - ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه، وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد .

د – ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكر له جميل صنعه .

وهذا فإن كل ما كان شراً إنما هو أمر نسبي إضافي، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر بالنسبة إلى من هو شر في حقه، فله وجهان هو من أحداهما خير، وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى، خلقاً وتكويناً ومشيئة، لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها، واطلع على من شاء من خلقه على ما شاء منها (١) .

احتجاج الكفار بالقدر :

هذا وقد أراد المشركون أن يحتجوا بقدر الله ومشيئته على شركهم، وأنه لو لم يشأ لهم الشرك لما وقعوا فيه، فأبطل الله حجتهم ودحضها بقوله عز وجل : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۞ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام : ١٤٨ – ١٤٩] . فهذا هو جواب رب العزة لمن يحتج بقدره سبحانه على مصيبته، ولله الحجة البالغة . وجوابه سبحانه للمحتجين بالقدر واضح كل الوضوح، لقيامه على أمرين بدهيين مسلمين لا يماري فيهما إلا من استحب العمى على الهدى، فاستحق الهلاك، وهما :

الأول : أن الله عز وجل أذاق الكافرين الأول بأسه، وأنزل بهم عقابه، فلو لم يكونوا مختارين لما ارتكبوه من الجرائم والآثام والكفر والشرك، لما عذبهم الله، لأنه عادل لا يظلم أحداً .

والذي يحتج بقدر الله على الكفر والمعصية لا يعدو أحد اثنين :

فإما أن يكون مؤمنا بوجود الله، وإما أن يكون منكراً، فإذا كان الأول لزمه الاعتقاد بعدل الله وتتريهه عن الظلم، لأن الظلم نقص لا يليق بالخالق، لأنه تجاوز الحد، والله سبحانه لا يعتريه نقص بحال من الأحوال، ولا شك في أن عقاب المكره على الفعل ظلم، والإحتجاج بقدر الله على معصيته، مع ظهور عقابه سبحانه للعصاة، فيه نسبة الظلم إليه، وهو أمر يتنافى مع الإيمان بالله عز وجل . وإن كان المحتج بالقدر منكراً لله فإن احتجاجه بالقدر تناقض ومماحكة لا يستحق الجواب .

هـــ - إظهار واستخراج العبوديات المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما ظهرت، كالجهاد والموالاة والمحبة في الله، والبغض في الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتوبة إلى الله والرجوع إليه، ومخالفة عدو الله والاستعاذة بالله منه، والاتعاظ، والحذر من الغرور، وغير ذلك – أنظر مدارج السالكين ج٢ ص١٩٤ .

(١) الروضة الندية ص٣٥٦ .

الثاني : أن المحتج بالقدر على كفره ومعصيته متقول على الله بغير علم، إذ كيف يصح للكافر أو العاصي أن يحتج بأن الله كتب عليه الكفر أو المعصية قبل صدور ذلك منه، وقدر الله وقوعه غيب لا يعلمه إلا الله عز وجل، مع إنه مخاطب قبل إقدامه على عصيان ربه بطاعته والتزام أمره ؟ وبعبارة أقرب : كيف يصح لرجل أن يقول : كتب علي ربي أن أسرق فأنا ذاهب لتنفيذ قدره ؟ فهل اطلع على اللوح المحفوظ، فقرأ ما فيه حتى يعلم ما كتب الله عليه، في وقت كان مخاطباً بالامتناع عن معصية الله بالسرقة وغيرها؟

وبمثل هذه الحجة البالغة أجاب سبحانه على هؤلاء المتذرعين بقدر الله في مواضع أخرى من القرآن، من ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٢٨] .

والواقع أن هذا الأسلوب القرآني في الرد على أمثال هؤلاء جاء ليصحح للناس منهجهم في الفكر والنظر، ويبين لهم أن المطلوب منهم هو تنفيذ أوامره سبحانه، واجتناب نواهيه، وليس المطلوب أن يبحثوا عن غيبه المستور ليكيفوا أنفسهم على حسبه . يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى عليه في ظلال آية الأنعام السابقة :

(واللمسة الثانية (١)، كانت بتصحيح منهج الفكر والنظر... إن لله أمرهم بأوامر ونهاهم عن محظورات، وهذا ما يملكون أن يعلموه علماً مستيقناً... فأما مشيئة الله فهي غيب لا وسيلة لهم إليه، فكيف يعلمونه ؟ وإذا لم يعلموه يقيناً فكيف يحيلون عليه... إن الله أوامر ونواهي معلومة علماً قطعياً فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية ليمضوا وراء الحدس والخرص في واد لا يعلمونه .

هذا هو فصل القول في هذه القضية : إن الله لا يكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكيفوا أنفسهم على حسبه . إنما يكلفهم أن يعلموا أوامره ونواهيه ليكيفوا أنفسهم على حسبها .. وهذا حسبهم في القضية، التي تبدو عندئذ، في واقعها العملي، بسيرة واضحة، بريئة من غموض ذلك الجدل وتحكماته .

إن الله قادر لو شاء على أن يخلق بني آدم ابتداء بطبيعة لا تعرف إلا الهدى أو يقهرهم على الهدى، أو يقذف بالهدى في قلوبهم، فيهتدوا بلا قهر ... ولكنه سبحانه شاء غير هذا ؟ شاء أن يبتلي بني آدم بالقدرة على الإتجاه على الهدى أو الضلال، ليعين من يتجه منهم إلى الهدى على الهدى، وليمد من يتجه منهم إلى الضلال في غيه وفي عميانه .. وجرت سنته بما شاء ...

(١) يقصد قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ ؟

فالقضية واضحة، مصوغة في أيسر صورة يدركها الإدارك البشري، فأما المعاظلة فيها والمجادلة، فهي غريبة على الحس الإسلامي، وعلى المنهج الإسلامي ... ولم ينته الجدل فيها في آية فلسفة أو أي لاهوت إلى نتيجة مريحة، لأنه جدل يتناول القضية بأسلوب لا يناسب طبيعتها...

وبعد فلقد جاء هذا الدين ليحقق واقعاً عملياً، تحدده أوامر ونواه واضحة، فالإحالة إلى المشيئة الغيبية دخول في متاهة، يرتادها العقل بغير دليل، ومضيعة للجهد الذي ينبغي أن ينفق في العمل الإيجابي الواقعي) (١) .

فيا أخي القارئ : أنت مطالب قبل الفعل، بطاعة الله وعدم معصيته، وبعد الفعل : فإن أطعت الله، فعليك شكره إذ هداك، وإن عصيته فأنت مخاطب بوجوب التوبة والرجوع إليه، وتستيقن بعدله وحكمته، وأن تكره المعصية قبل وقوعك فيها ليصدك ذلك عنها، وبعد وقوعها ليدفعك ذلك إلى التوبة إلى الله تعالى . ولتعلم أن ليس في كراهيتك للمعصية قدرر الله وإنما أنت مطالب بكره ما يكره الله وحب ما يحب، وأن توافق ربك في رضاه وسخطه، فترضى بما رضي به وتسخط مما سخط الله منه . ولتعلم أيضاً أن الله لا يحب الكفر، ولا يرضاه لعباده ولا يحب أن يعصى، ولا يرضى ذلك لعباده، فقد قال سبحانه : ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ...﴾ [الزمر : ٧] .

خفاء القدر وكراهية الخوض فيه :

ذلك ما يحتاج إليه المؤمن في القضاء والقدر، فيكفيه أن يعلم معناه ودرجاته، وأن يؤمن به، وأن الله عليم بكل شيء، وخالق كل شيء، وما لم يشأ لم يكن، وأنه عادل لا يظلم أحداً، وأنه حكيم متره من العبث، ولا يحتاج هذا الموضوع إلى أكثر من ذلك . وما علم الله حاجتنا إليه بينه لنا، وما طواه عنا لا يجوز أن نتكلف البحث عنه، فنختلف ونهلك فإن عقولنا محدودة، خلقها الله للإسهام في عمارة الأرض، وليست وظيفتها اكتشاف الغيب الذي استأثر بعلمه خالقها . وليس أمامنا إلا التسليم والإيمان بما يعرفها الله عليه من أمور الغيب وقضاياه . ومن هذه القضايا : الصلة بين خلق الله للأفعال وإرادة الإنسان وفعله لهذه الأفعال .

وليست هذه هي القضية الغيبية الوحيدة التي لا يدرك العقل كنهها، فصفات الله عز وجل ندرك آثارها، ولا ندرك كيفياتها، شأنها شأن الذات الإلهية التي لا يستطيع العقل البشري إدراكها (١) .

---

(١) في ظلال القرآن ط دار الشروق ج٨ ص١٢٢٧ .

ولهذا نهى الرسول ﷺ عن الخوض في القدر والتعمق فيه، فقد أخرج الإمام أحمد بإسناده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال : فقال لهم : مالك تضربون كتاب الله بعضه ببعض ؟ بهذا هلك من كان قبلكم (٢) .

وقد جاء رجل علياً رضي الله تعالى عنه، يسأله عن القدر فقال : طريق مظلم فلا تسلكه، قال : أخبرني عن القدر، قال : بحر عميق فلا تلجه، قال : أخبرني عن القدر، قال : سر الله فلا تكلفه (٣) .

وما أحسن ما قاله الإمام الطحاوي رحمه الله : (وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل . والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان . فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى : ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٣]، فمن سأل : لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين . فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى، وهي درجة الراسخين في العلم، لأن العلم علمان : علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود كفر، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود وترك طلب العلم المفقود) (٤) .

أثر عقيدة القدر في المسلم :

لقد بني هذا الدين على التسليم لحكمة الله وإرادته، وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة الربانية في الأوامر والنواهي . وكذلك كان أصحاب الأنبياء . فإن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم، فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به (٥) .

---

(١) تبسيط العقائد الإسلامية لحسن أيوب ص٨٤ .

(٢) أنظر الفتح الرباني ج١ ص١٤٢، وسنن ابن ماجه ج١ ص٣٣ .

(٣) تيسير العزيز الحميد ص٦٢٠، العقائد الإسلامية لسيد سابق ص٩٩، والشرعية للآجري ص٢٠٢ .

(٤) أنظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٢٧٦، ٢٩٢ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص٢٩١ .

وهكذا كان الصحب الكرام، فقد كانوا شديدي الأدب مع ربهم، ومع رسول الله ﷺ فقد قال فيهم ابن عباس رضي الله عنهما : (ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض) (١) .

وفي مسألة القدر أجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة، فهو مكتوب في أم الكتاب .

عن ابن الديلمي قال : أتيت أبي ابن كعب، فقلت له : قد وقع في نفسي شيء من القدر، فحدثني لعل الله يذهب من قلبي، فقال : لو أن الله تعالى عذب أهل سمواته وأهل أرضه، عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحدا ذهباً في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار . قال : ثم أتيت ابن مسعود فقال مثل ذلك . ثم أتيت حذيفة، فقال مثل ذلك . ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك (٢) .

وعن عبادة بن الصامت " قال لابنه عند الموت : يا بني، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إن أول ما خلق الله القلم، قال له : أكتب، فقال يا رب وما أكتب ؟ قال : أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة " . يا بني إن سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من مات على غير هذا فليس مني " (٣) .

هذا وقد كان لهذه العقيدة في نفوس أصحاب الرسول ﷺ أجل الأثر، فقد انطلقوا في الأرض، وهم يحملون عقيدة القدر، كما علمهم إياها رسول الله ﷺ فقد قال لابن عباس رضي الله عنهما : " يا غلام احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، إذ سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن

(١) أعلام الموقعين ج ط ص٧١ .

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد الطبراني وابن حبان، وفي إسناد سعيد بن سنان الشيباني وثقه ابن معين، وتكلم فيه أحمد وغيره – أنظر : جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ج٢ ص٣١٨ وكتاب الشريعة للآجري ص٢٠٣ وصحيح الجامع الصغير ج٥ ص٥٧، ٥٨ .

(٣) رواه أبو داود – أنظر جمع الفوائد ج ط ص٣٢٨، وكتاب الشريعة للآجري ص٢١١ .

ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك . وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف " (١) .

هذه العقيدة سكبت في قلوبهم السكينة، وأفاضت على نفوسهم الطمأنينة، وربتهم على العزة، فارتاحت أعصابهم وهم منطلقون لتبليغ هذا الدين إلى البشرية، وقد استصغروا قوى الأرض جميعاً أمام إيمانهم بقدر الله . سئل سلمان الفارسي : ما قول الناس حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ؟ فقال : (حتى تؤمن بالقدر : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك) (٢) . ولم يكن هذا قول سلمان فحسبت وإنما كان قول أصحاب رسول الله ﷺ جميعاً .

فأية سعادة تضفيها على النفس هذه العقيدة، وأية شجاعة انطوت عليها قلوب آمنت أن الأمر بيد الله، وأن البشر لا أمر لهم : إن قوى الأرض جميعاً لا تقف أمام إنسان يحمل هذا المبدأ، ويكن بين جنباته هذا الإيمان . ومن هنا نجد التفسير الصحيح للأعمال التي حققها هذا الإيمان على يد العصبة المؤمنة التي انطلقت بهذا الدين إنها أعمال تشبه الخوارق، ولكنها حقائق . إن تلك الإنجازات العظيمة التي حققها رسول الله ﷺ وصحبه الكرام إن هي إلا ثمرة إيمانهم بالله واليوم الآخر وقدر الله عز وجل .

إن الإنسان الذي ينعم بعقيدة القدر، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن الأمة لو اجتمعت لن تضره إلا بشيء، قد كتبه الله عليه، وأنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، إن هذا الإنسان هو وحده الذي يتحرر من العبودية للعباد بدخوله في العبودية لرب العباد، إذ كيف تنحني جبهته لأية قوة على ظهر الأرض .

وهو يعلم أن الأمر بيد خالق السموات والأرض ومن فيهن ؟ وكيف تذل نفسه لعبد من تراب ؟ يقول ابن رجب رحمه الله تعالى : (فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب، فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب ؟ أم كيف يرضى التراب بسخط المالك الوهاب ؟ إن هذا لشيء عجاب) (٣) .

إن هذه العقيدة لتنتزع كل مظهر للجبن من القلب الذي تعمره، فتدفع صاحبها إلى جهاد الكفار والطغاة دون أن يحسب لوسائلهم وأساليبهم أي حساب، لماذا ينشغل بالحساب لهم، وقد ضمن له خالقه وخالقهم أن يستوفي رزقه وأجله ؟ ولماذا يجبن وهو يعلم أن المقدور نازل به لا محالة، وغير المقدور لن يحيق به أبداً، فما أحسن قول من قال :

---

(١) رواه الترمذي وقال : حسن صحيح – أنظر جمع الفوائد ج٢ ص٣٢٩ .

(٢) الشريعة للآجري ص٢٠٦ .

(٣) أنظر : جامع العلوم والحكم ص٣٨٥ .

أي يومي من الموت أفر | يوم لا قدر أو يوم قدر
يوم لا قدر لا أرهبه | ومن المقدور لا ينجو الحذر

إن النفس المؤمنة بقدر الله سبحانه لتنعم بنعمة أخرى لا تعدلها نعم الدنيا كلها، إنها نعمة الرضا في كل حال . ذلك أن هذه النفس ترى أن المقادير تجري بأمر الله عز وجل، ومشيئته وتدبيره، وأن الأحداث تنبثق بحكمة الله وإرادته، وهو يعلم والناس لا يعلمون، كما قال تعالى : ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

فتعلم هذه النفس المؤمنة أن الله الذي قدر لها الخير أو الشر حكيم رحيم فلا تبطر بنعمة، ولا تجزع من مصيبة، فهي شاكرة في السراء، صابرة في الضراء، أمرها كله خير، كما قال المصطفى عليه الصلاة والسلام : " عجباً للمؤمن ؟ إن أمره كله له خير، وليس لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له " (١) .

فالمؤمن من ينظر إلى المصيبة، فيعلم أنها قدر الله، فيطمئن ويرضى، فيكون أكثر أدباً من أن يعترض على مولاه وخالقه، وينظر إلى عاقبة المصيبة ومآلها من الثواب، فيرضى ويصبر، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : " أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة ابتلي على قدر ذلك، وإن كان فيه رقة، هون عليه، فما يزال البلاء بالرجل، حتى يدعه يمشي على الأرض، وليس عليه خطيئة " (٢) .

وقد عبر عن ذلك ابن القيم أجمل تعبير، فقال :

وإذا اعترتك بلية فاصبر لها | صبر الكريم فإنه بك أكرم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما | تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

وهذا علقمة رحمه الله يفسر قوله تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن : ١١]، فيقول : هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند

(١) رواه مسلم من حديث صهيب – أنظر رياض الصالحين مع دليل الفالحين ج١ ص١٤٧ .
(٢) متفق عليه .

الله فيرضى ويسلم (١) . وقال ابن عباس : يهدي قلبه اليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه (٢) .

ولقد ارتفعت نفوس الصحابة رضوان الله عليهم في ظلال هذا التصور الإيماني، وسمت أرواحهم، وارهفت ضمائرهم، حتى استوت في نظرهم السراء والضراء، وتماثل لديهم الشكر والصبر، كما يقول عمر " : (لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب) .

ويقول أبو محمد الحريري : (الصبر أن لا يفرق بين النعمة والمحنة مع سكون الخطر فيهما) .

وقد سئل الإمام أحمد عن الرجل يكون معه مائة ألف دينار هل يكون زاهد ؟ قال : نعم، بشرط أن لا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت، وقال بعض السلف : الزاهد من لا يغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره (٣) .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري، رضي الله عنهما : (أما بعد، فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى، وإلا فاصبر) (٤) . وقال ابن عطاء : (الرضى سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد أنه اختار له الأفضل) (٥) .

هذا والصبر واجب باتفاق العلماء . وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله، وقيل عن الرضى : إنه واجب، وقيل هو مستحب، وقد أجمع العلماء على أن حكمه لا يقل عن الاستحباب (٦) .

وأساس الرضا الإيمان بقدر الله عز وجل ؛ كما تقدم، واستشعار لطف الله بعباده، قال عبد الواحد بن زيد : (الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين . وأهل الرضا، يلاحظون ثواب المبتلي، وخيرته لعبده في البلاء، وأنه غير متهم في قضائه . وتارة يلاحظون ثواب الرضا بالقضاء، فينسيهم ألم المقضي به، وتارة يلاحظون عظمة المبتلي وجلاله وكماله، فيستغرقون في مشاهدة ذلك حتى أنهم لا يشعرون بالألم، بل ربما يتلذذون بما أصابهم لملاحظة صدوره من حبيبهم) (٧) .

---

(١) أنظر تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٧٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) أنظر هذه الأقوال وغيرها في عدة الصابرين ص٩٠، ٢٢٦ .

(٤) مدارج السالكين ج٢ ص١٧٧ .

(٥) مدارج السالكين ج٢ ص١٧٥ .

(٦) مدارج السالكين ج٢ ص١١٧، والروضة الندية ص٤٨٩ .

(٧) مدارج السالكين ج١ ص١٦٧ . والروضة الندية ص٤٨٦ . وجامع العلوم والحكم ص١٧٠ .

ولتعلم أيها الأخ القارئ أن الرضا والصبر اللذين يثمرهما الإيمان بالقدر إنما هما الرضا بالمقدور من المصائب والنوائب، والصبر على طاعة الله تعالى، والصبر عن معصيته، وعلى أنواع المكاره (١) وليس المقصود الرضا بالكفر والعصيان والفسوق عن أمر الله، ولا الصبر على الذل والضيم، فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية والهوان فليكن رضاك تبعاً لرضى ربك، وصبرك في طاعة الله وفي سبيله .

إن الرضا بالقدر والصبر على البلاء، والطمأنينة إلى حكم الله عز وجل، لهي أهم القواعد التي يقام عليها السكن النفسي، وهي من أبرز الدوافع لإنطلاق جميع الطاقة البشرية للعمل في هذه الأرض ضمن منهج الله، فلا التفات للوراء، ولا محطات للتحسر والندم، ولا لو كان كذا وكذا لكان كذا وكذا، ولكن قدر الله وما شاء فعل .

ففي هذه العقيدة هدوء القلب وراحة البدن والنفس والأعصاب، ومفارقة الهم، والحزن، فلا تمزق نفسي، ولا توتر عصبي، ولا شذوذ، ولا انفصام، وإنما رضا وسكينة وسعادة وراحة وطمأنينة، ويرد اليقين، وقرة العين، وهناءة الضمير، وانشراح الصدر، والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله، وعلمه وحكمته، فهو الملاذ والمعاذ من الوسواس والهواجس .

إن الاعتقاد بعقيدة القدر يحدث في واقع الناس وفوق هذه الأرض نتائج إيجابية هائلة .

وأما المجتمعات التي تركت هذه العقيدة، وفرغت من الإيمان بالله وتدبيره لشؤون الحياة والأحياء، فنصيبها في الآخرة خلود في العذاب المهين، وفي هذه الدنيا ضياع السعادة، وتمزق الأعصاب، وضنك العيش وتوتر الحياة، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طـه : ١٢٣ – ١٢٤] .

الإيمان بالقدر لا ينافي الأخذ بالأسباب :

ويجب أن لا يغيب عن بالنا أننا مأمورون بالأخذ بالأسباب، مع التوكل على الله عز وجل، والإيمان أن بيده ملكوت كل شيء، والإيمان أن الأسباب لا تعطي النتائج إلا بإذن الله سبحانه وتعالى، فالذي خلق الأسباب هو الذي خلق النتائج والثمار فمن أراد النسل الصالح فلا بد أن يتخذ لذلك سبباً، وهو الزواج الشرعي، ولكن هذا الزواج قد يعطي الثمار، وهي النسل، وقد لا يعطي، حسب إرادة العزيز الحكيم، ومشيئة اللطيف

(١) أنظر : شرح النووي على صحيح مسلم ج٣ ص١٠١ .

الخبير : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۞ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى : ٤٩ – ٥٠] .

ولذا يحرم على المسلم ترك الأخذ بالأسباب، فلو ترك إنسان السعي في طلب الرزق لكان آثماً، مع أن الرزق بيد الله تعالى .

وقد بين رسول الله ﷺ أن الأسباب المشروعة هي من القدر، فقيل له : أرأيت رقي نسترقي بها، وتقي نتقي بها، وأدوية نتداوى بها، هل ترد من قدر الله شيئاً : فقال : هي من قدر الله (١) .

فالالتفات إلى الأسباب، واعتبارها مؤثرة في المسببات، شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع (٢) .

لذا فقد أمر النبي ﷺ بالتداوي : فقد روى أصحاب السن عن أسامة ابن شريك قال : أتيت النبي ﷺ وأصحابه، فكأنما على رؤوسهم الطير، فسلمت ثم قعدت، فجاء الأعراب من ههنا وههنا، فقالوا : يا رسول الله، أنتداوى فقال : " تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد : الهرم " (٣) وفي الصحيحين عن أبي هريرة " قال : قال رسول الله ﷺ : " ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء " (٤) . وبناء على هذا الأمر بالتداوي قال الفقهاء باستحبابه، وبعضهم قال بوجوبه .

قال شارح العقيدة الطحاوية : (وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الأسباب، وأن الأمور إذا كانت مقدرة فلا حاجة إلى الأسباب، وهذا فاسد فإن الاكتساب : منه فرض ومنه مستحب، ومنه مكروه، ومنه حرام... وقد كان النبي ﷺ أفضل المتوكلين، يلبس لأمة الحرب، ويمشي في الأسواق للاكتساب) (٥) .

وهكذا كان فهم الصحابة الكرام، رضوان الله عليهم، للعلاقة بين الإيمان بالقدر، وتعاطي الأسباب، وأن هذا الثاني داخل في معنى الإيمان بالقدر، ولا ينافيه، وإنما هو مقتضى من مقتضياته . روى البخاري أن عمر " لما خرج إلى الشام لقيه أمراء الأمصار، وأخبروه بانتشار الوباء فيها، فاستشار المهاجرين والأنصار، ثم مهاجرة الفتح من

(١) أنظر : زاد المعاد ج٢ ص٦٦ .
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ج٨ ص٥٢٨ .
(٣) رواه الأربعة، وقال الترمذي : حسن صحيح – أنظر مختصر أبي داود ص٣٤٦ .
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الطيب .
(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٠١ .

مشايخ قريش، فاجتمع المهاجرة على الرجوع، بعداً عن الوباء . وأمر بذلك عمر، فقال له أبو عبيدة : أفراراً من قدر الله، فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة . نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله (١) .

ولذا بَكَّت عمر بن الخطاب جماعة من أهل اليمن كانوا يحجون بلا زاد، فذمهم، قال معاوية بن قرة، لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن، فقال : من أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكلون . قال : بل أنتم المتآكلون، إنما المتكل الذي يلقي حبه في الأرض، ثم يتوكل على الله (٢) .

يقول ابن قيم الجوزية : (لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى ... وإن تعطيلها يقدح في نفس التوكل ... وإن تركها عجزاً ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً، ولا توكله عجزاً ...) (٣) .

وقال سهل بن عبد الله : من طعن في الحركة فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، فالتوكل حال النبي ﷺ والكسب سنته، فمن عمل على حاله، فلا يتركن سنته (٤) .

---

(١) فتح الباري ج١٠ ص١٥٠، ١٥١، الموطأ ص٥٥٧، ٥٥٨ .

(٢) جامع العلوم والحكم ص٣٨٤ .

(٣) زاد المعاد ج٣ ص٦٧ .

(٤) مدارج السالكين ج٣ ص١١٦ .

حقيقة الإيمان

تلك هي الأمور التي يجب أن نؤمن بها، ولكن ما معنى الإيمان بها ؟ وكيف يكون ؟ وما الشيء الذي يصدق عليه هذا الاسم ؟

اختلف أهل العلم في هذا الموضوع على قولين (١) :

القول الأول : إن الإيمان اسم يقع على الإقرار باللسان، والتصديق بالقلب، والعمل بالجوارح . وهو القول الذي ذهب إليه معظم أهل السنة (٢) .

(١) اختلاف الناس في هذا الأمر على أكثر من قولين، ولكن أهل السنة ليس عندهم فيه إلا قولان، والأقوال الأخرى سواهما لفرق أخرى، وقد فصلت كثير من كتب العقيدة هذه الأقوال، ولا حاجة لعرضها والرد عليها في هذا المقام، لظهور بطلانها واتفاق علماء السنة على مجانبتها للحق والصواب المستخرج من كتاب الله وسنة رسوله . أنظر تفصيل هذه الأقوال والرد عليها في شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧٣ وما بعدها .

(٢) قال ابن القيم :

وأشهد عليهم أن إيمان الورى   قول وفعل ثم عقد جنان

قال الشارح : مذهب أهل السنة أن الإيمان تصديق بالجنان وعمل بالإركان وقول باللسان .

قال الإمام الشافعي رحمه الله في الأم : (وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون " إن الإيمان قول وعمل ونية لا تجزئ واحد من الثلاثة إلا بالأخرى ") .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : (ولهذا كان القول أن الإيمان قول وعمل عند أهل السنة، من شعائر السنة) .

وروى أبو عمر الطلمنكي بإسناده المعروف عن موسى بن هارون الحمال قال : (أملى علينا اسحاق بن راهويه أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، لا شك أن ذلك كما وصفنا، وإنما عقلنا هذا بالروايات الصحيحة والآثار العامة المحكمة، وأقوال أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين على ذلك وكذلك من بعد التابعين من أهل العلم على كل شيء واحد لا يختلفون فيه، وكذلك في عهد الأوزاعي بالشام وسفيان الثوري بالعراق، ومالك بن أنس بالحجاز . ومعمر باليمن، على ما فسرنا وبينا أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص) .

وقال الحافظ بن عبد البر في التمهيد : (أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعات وينقص بالمعصية، الطاعات كلها

القول الثاني : أن الإيمان اسم يقع على الإقرار باللسان والتصديق بالقلب، ولا يدخل فيه العمل بالجوارح . ولكنهم يقولون : إن العمل بكل ما صح عن رسول الله من الشرائع والبيان حق وواجب على المؤمنين الذين اكتسبوا هذا الاسم بالإقرار والتصديق (١) .

ومع أن الأدلة من الكتاب والسنة أظهر في القول الأول، وأدل عليه من القول الآخر (٢)، ومع أن كل فريق منهما حاول دعم وجهة نظره بجملة من الأدلة، فإن الظاهر أن الخلاف بينهما خلاف نظري، لا يترتب عليه أي أثر عملي، وإن كان قد يترتب عليه خلافات نظرية أخرى، يقول صاحب شرح العقيدة الطحاوية : (والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة، اختلاف صوري، فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب أو جزءاً من الإيمان مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، بل هو في مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه نزاع لفظي لا يترتب عليه فساد اعتقاد) (٣) .

وسبب ذلك – والله أعلم – أن العمل بالجوارح، لا يختلف الفريقان في تحديد قيمته وأهميته في دين الله، وإن اختلفوا في تكييفه، إن كان جزءاً من الإيمان أو مجرد مقتضى من مقتضياته ولازماً من لوازمه، فالذين اعتبروه جزءاً من الإيمان لم يجعلوه كالإقرار باللسان والتصديق بالجنان، من حيث ذهاب اسم الإيمان بذهابهما وعدم ذهاب هذا الاسم بعدم العمل، والآخرون وإن لم يعتبروه من أجزاء الإيمان فهم يرون وجوبه، لأنه من لوازم الإيمان .

وإذا كان كذلك، فإن الخوض والتعمق في تلك القضية ليس له فائدة كبيرة والأولى الاهتمام بغيرها . ولكن من المفيد بيان بعض المعايير المستنبطة من ذلك القدر المشترك بين الفريقين، والتي يمكن بها تحديد من يدخل من الناس في مسمى الإيمان ومن لا يدخل :

عندهم إيمان، إلا ما ذكر عن أبي حنيفة وأصحابه فإنهم ذهبوا إلى الطاعات لا تسمى إيماناً، قالوا : إنما الإيمان التصديق والإقرار) .
شرح قصيدة ابن القيم ج٢ ص١٣٩، ١٤٠، ١٤١ .

(١) أنظر العقيدة الطحاوية مع شرحها ص٣٧٣ . وكتاب الإرشاد للجويني ص٣٩٩، والفقه الأكبر وشرحه لملا علي القاري ص٨٧، ٨٨ .

(٢) أنظر في ترجيح القول الأول : شرح النووي على صحيح مسلم ج١ ص١٤٨ ورسالة الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص٥٤ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧٤ .

١- فقد اتفقوا على أنه لا يدخل في الإيمان من أقر بلسانه، ظاهراً، وكذب بقلبه، وهؤلاء هم المنافقون، الذين أخبر الله تعالى عنهم أنهم أشد عذاباً من الجاحدين وأنهم في الدرك الأسفل من النار (١) .

٢- كما اتفقوا على أن المعرفة بالقلب لا تكفي في تحقيق اسم الإيمان، فلا بد مع المعرفة والتصديق من الإقرار باللسان، فإن فرعون وقومه كانوا يعرفون صدق موسى وهارون عليهما السلام، وكانوا كافرين، قال تعالى، مخبراً عما قاله موسى لفرعون : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء : ١٠٢] وقال تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل : ١٤]، وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي ولم يؤمنوا به، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام : ٢٠]، بل إن إبليس كان عارفاً بربه، ولكنه إمام الكافرين (٢) .

فأهل السنة متفقون على أن المؤمن الذي يحكم بأنه من أهل القبلة، ولا يخلد في النار، لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقاداً جازماً، خالياً من الشكوك، ونطق بالشهادتين، فإن اقتصر على أحد هذين الأمرين لم يكن من أهل القبلة أصلاً، اللهم إلا إذا كان تخلفه عن النطق والإقرار باللسان ناشئاً عن سبب قاهر لا قبل له به، كمن عجز عن النطق لخلل في لسانه، أو لعدم التمكن منه لمعاجلة المنية له قبل النطق، أو لإكراه ملجئ منعه عن النطق (٣) .

٣- وأجمع أهل السنة على أن الله يطلب من العباد قولاً وعملاً، والمقصود بالقول : قول القلب وهو التصديق، وقول اللسان وهو الإقرار، إنما اختلافهم في كون هذا المطلوب جميعه داخلاً تحت اسم الإيمان، فبعضهم أدخله جميعه بما فيه من قول وعمل، وآخرون أدخلوا جزءاً منه، وجعلوا الجزء الآخر من مقتضياته وثماره (٤) .

٤- وأجمعوا أيضاً على أن العبد لو صدق بقلبه وأقر بلسانه، وامتنع عن العمل بجوارحه فإنه يكون عاصياً لله ولرسوله، ومستحقاً للوعيد الذي ذكره الله في كتابه، وأخبر به الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم (٥) .

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ج١ ص١٤٧ .
(٢) كتاب الإيمان للقاسم بن سلام ص١٠٢، شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧٣، ٣٧٤ .
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ج١ ص١٤٩ .
(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧٤ .
(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧٤ .

٥- وأجمعوا أيضاً على أن مرتكب الكبيرة ليس كافراً ما دام غير مستحل لها، وإن مات قبل التوبة عنها . فالجمهور من أهل السنة، وإن جعلوا العمل جزءاً من الإيمان، إلا أهم لم يقولوا بتكفير المصدق بقلبه المقر بلسانه إن لم يعمل، والحنفية وإن أخرجوا العمل من الإيمان إلا أهم اعتبروه من لوازمه ومقتضياته والكل متفقون على عدم التكفير بترك العمل (١) .

٦- ولا خلاف بين أهل السنة أن ما تقدم من تعريف الإيمان بالقول والتصديق والعمل إنما هو بالنظر إلى ما عند الله تعالى، واستحقاق دخول الجنة وعدم الخلود في النار، وإن الإيمان بالنظر إلى أحكام الدنيا، فهو مجرد الإقرار باللسان، والنطق بالشهادتين : فمن أقر بهما أجريت عليه الأحكام في الدنيا، فطولب بالتزاماتهما، وأعطي حقوقهما، و لم يحكم عليه بكفر إلا إذا جاء بما ينقضهما من القول والعمل (٢) .

ويدل على هذا الأصل حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : بعثنا رسول الله فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلاً فقال : لا إله إلا الله، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي، فقال رسول الله ﷺ : " أقال لا إله إلا الله وقتلته ؟ قال : يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ (٣) . فيدلك قوله عليه الصلاة والسلام " أفلا شققت عن قلبه "، أننا مكلفون بالعمل الظاهر وما ينطق به اللسان، وأما القلب فليس لنا طريق إلى معرفة ما فيه .

زيادة الإيمان ونقصه :

وبناء على ما تقدم من اختلاف الفريقين السابقين في تحديد مسمى الإيمان، اختلفوا أيضاً في قضية أخرى هي زيادة الإيمان ونقصه، فمن أدخل العمل في مسماه قال بذلك، ومن قصره على الإقرار والتصديق لم يقل بها . أما وقد عرفت أن الخلاف في تحديد مسمى الإيمان خلاف نظري وصوري، فكذلك الخلاف في هذه القضية، ذلك أن الفريق الذي لا يرى زيادة الإيمان ونقصه يصرح بأن الناس يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح ويتفاوتون في الأجر والمكانة عند الله تعالى، يقول الإمام الطحاوي في العقيدة

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧٥ .
(٢) فتح الباري ج١ ص٣٩، ٤٠ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص٩٩ .

الطحاوية : (والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخافة الهوى وملازمة الأولى) (١) .

وعلى أية حال فإن ظواهر النصوص القرآنية الكريمة، والنبوية الشريفة تدل على أن الإيمان يزيد وينقص، من هذه النصوص قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال : ٢] . وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران : ١٧٣]، وقوله : ﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح : ٤] . ومن الأحاديث الدالة على هذا قول النبي ﷺ : " الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان (٢) "، وقوله أيضاً : " أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً " (٣)، وقوله : " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطيع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان " (٤) . وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : " ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " (٥) .

ومن أقوال الصحابة الدالة عليه، ما ورد عن أبي الدرداء " أنه قال : (من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أيزداد هو أم ينقص)، وكان عمر " يقول لأصحابه : (هلموا نزداد إيماناً فيذكرون الله عز وجل)، وأمثال هذا من النصوص والآثار الدالة على قوة الإيمان وضعفه بحسب العمل كثير (٦) .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧٥ .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم – أنظر صحيح البخاري مع فتح الباري ج١ ص٤٤، وصحيح مسلم بشرح النووي ج١ ص٦ .

(٣) رواه الترمذي والحاكم وقال : صحيح على شرطهما، وقال الترمذي : حديث حسن – أنظر : الترغيب والترهيب ج٣ ص٤٠٣ .

(٤) أنظر : صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص٢٢ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص٢٧ .

(٦) أنظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٣٨٦ .

وإذا كان ظاهر النصوص يدل على زيادة الإيمان ونقصه، فلا داعي للخروج عن هذا الظاهر، خاصة وإنه لا فائدة من التأويل، ولا ثمرة في الخلاف .

على أن الأمر الأهم من كل ذلك أن يتعهد المؤمن إيمانه ويحاسب نفسه فيه إن كان زاد أم نقص، وأن ينظر في أسباب نقصانه إن كان نقص، فيتحاشاها ويبتعد عنها، ويلتمس أسباب الزيادة والنماء وصلاح القلب، كما كان يفعل الصحابة رضوان الله عليهم .

ومن أهم أسباب زيادة الإيمان ما يلي :

١- العلم : فإن الاستزادة منه سبب في زيادة اليقين والمعرفة، قال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما : (تعلمنا الإيمان، تعلمنا القرآن فزدنا إيماناً) (١) . والمقصود في هذا المقام العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وآياته سبحانه وتعالى، والعلم برسول الله ﷺ وما جاء به من الأخلاق والمناهج والتشريعات، وسيرته في عبادته وجهاده ومعاملته، والعلم بكتاب الله وما فيه من الأخبار والأمثال والحكم والعبر والفرقان .

ذلك أن أصل الإيمان هو الإقرار بألوهية الله وما يليق به من الصفات، والاعتراف برسالة محمد ﷺ وبكل ما جاء به من عند ربه، بصورة إجمالية وهي المتمثلة بالشهادتين، فمن قالهما معتقدا بهما فقد حاز أصل الإيمان ولكنه لا يستوي مع من علم معناهما ومقتضياتهما، بالتفصيل، فلا يستوي من علم بالتفصيل ما أخبر به الرسول ﷺ مما يكون بعد الموت من السؤال والعذاب والنعيم ومن لم يعلم بذلك، وإن كان هذا يدخل بصورة إجمالية في شهادة أن محمداً رسول الله، وكذلك لا يستوي من علم أحوال الآخرة بما يكون فيها من بعث ونشور وعرض وقراءة الصحف وحساب وأهوال وحوض وصراط وجنة ونار، مع من آمن باليوم الآخر إجمالا من غير تفصيل، وكذلك من علم بالتفصيل سيرة المصطفى ﷺ وما فيها من كمال، لا يستوي معه من لم يعرفها إلا بالإجمال . ولذا قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر : ٢٨]، وقال : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٩] .

٢- العمل : فإنه بالإكثار من العمل الصالح والطاعة يزداد اليقين، ويقوى الإيمان وبالإقلال من العمل والإغراق في الشهوات والمعاصي يضعف الإيمان، وقد يصل الحد ببعض الناس من كثرة معاصيهم إلى الإنكار والاستحلال وتكذيب الرسول – عليه الصلاة والسلام – تبريراً لفجورهم وفسوقهم، فيدخلون بالكفر والعياذ بالله .

ذلك أن أساس الإيمان بالله – كما علمت – هو الإقرار له بالألوهية، والإخلاص له بالعبودية، وهذا الإقرار والاعتراف في الواقع نوعان : اعتراف نظري بالتصديق

(١) أنظر شرح قصيدة ابن القيم ج٢ ص١٤١ .

واعتراف عملي بالطاعة والتطبيق، فمن اقتصر على الأول كان إيمانه بالله ناقصاً، وبقدر ما يزداد من الطاعة يزداد من الإيمان . ولا بد لتمام الإيمان من النوعين كليهما .

٣- الذكر والفكر : والمقصود بالأول ذكر الله بصفاته وما يليق بجلاله وعظمته، وتلاوة كلامه وآياته، فإنه يديم إيصال القلب بالخالق وقلته تورث النسيان والغفلة عن الله عز وجل، وقد تقدم دعوة عمر بن الخطاب " لإخوانه من الصحابة إلى زيادة إيمانهم بذكر الله . وقد روي عن أبي جعفر عن جده عمير بن حبيب وهو من أصحاب رسول الله ﷺ قال : الإيمان يزيد وينقص، قيل له وما زيادته ونقصانه ؟ قال : (إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته وإذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه)، وكان عبد الله بن رواحة يأخذ بيد الرجل من أصحابه يقول : (قم بنا نؤمن ساعة فنجلس في مجلس ذكر) (١) . كما أخبر سبحانه وتعالى أن من صفات المؤمنين أنهم يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

والمقصو بالفكر العمل على إدامة رؤية صنع الله بالتفكير في مخلوقاته، والنظر إلى آياته ومعجزاته، ذلك أن من الإيمان بالله الاستشعار بعظمته وقدرته وجليل صفاته وعظمة أفعاله، وهذا الاستشعار متفرع عن دوام النظر إلى ملكوت الله عز وجل، ووسيلة هذا النظر هو التفكير والاعتبار . ألا ترى لو أنك أخبرت بمهارة شخص في صناعة من الصناعات، وأخبرك كثيرون عن قدرته في مضماره، فإن إحساسك بمهارته يزداد إذا رأيت بعينيك نموذجاً من صناعته ولو بصورة إجمالية، فإذا شاهدت نماذج أكثر من صناعته ازداد ذلك الإحساس، ويزداد أكثر وأكثر إذا أتيحت لك الفرصة بتفحص هذه الصناعات والتدقيق فيها . وصفات الله عز وجل وأفعاله العظيمة متجلية للجميع في هذا الكون العظيم، ومن الناس من يخرون عليها صماً وعمياناً ولا يتجاوزون ما فيها من المتع والشهوات، وهؤلاء هم الكافرون وضعاف الإيمان، ومنهم من يقرأ فيها عظمة الله وعظمة سلطانه، وقدرته وتدبيره فيزدادون إيماناً ويقيناً . وهؤلاء الذين وصفهم الباري عز وجل بقوله : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران : ١٩١] . وقال عنهم سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ [الفرقان : ٧٣] وأما أولئك فقال عنهم : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة : ١٧ – ١٨] .

(١) شرح قصيدة ابن القيم ج٢ ص١٤٠، ١٤١ .

القسم الثاني
في نواقض الإيمان

عرفت فيما تقدم ما يجب على المؤمن أن يقر به من الأمور، ولا ينكره، كما عرفت في مبحث "حقيقة الإيمان" معنى الإيمان الذي يجب أن يتعلق بهذه الأمور .

ونخصص هذا القسم لمعرفة الأمور التي تنقض إيمان العبد، وتخرجه من عداد المؤمنين، وتدخله في عداد الكافرين .

على أن توضيح هذا الأمر يقتضي أن يقدم له ببحث يكشف لنا عن مبدأ الإيمان والإسلام، أي الحد الذي إذا وصله العبد المكلف من البشر، اعتبر مؤمناً ومسلماً، وإذا قصر عنه اعتبر كافرا، وجرت عليه أحكام الكفر في الدنيا والآخرة، إن لم يبدل و لم يغير، ومات قبل أن يصل إلى ذلك الحد الذي يصير به مؤمنا، وذلك لنكون على بينة من حدود دائرة الإيمان، وحدود دائرة الكفر، قبل الكلام فيما يخرج من الأولى ويدخل في الثانية .

ومن هنا كان هذا القسم مشتملاً على مبحثين، يعتبر الأول منهما مقدمة للثاني، وهما :

الأول : متى يصير الكافر مؤمناً (كيفية الدخول في دين الله عز وجل) .

الثاني : متى يصير المؤمن كافراً (نواقض الإيمان) .

متى يصير الكافر مؤمنا

كيفية الدخول في دين الله عز وجل

يظهر لك مما تقدم أن أركان الإيمان لها إجمال وتفصيل، وأن لكل ركن منها إجمالا وتفصيلا أيضا . فمن عرف تفصيل تلك الأركان، وصدق بها، وعمل بما تقتضيه من الأعمال، كان ممن قال عنهم الله عز وجل : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال : ٤] .

ولكنَ شاءت حكمة الله، تبارك وتعالى، تيسيرا على عباده، وتفضلا عليهم، أن يجعل الباب الذي يلجه العباد إلى الإيمان دون ذلك التفصيل، فاكتفى منهم بالإجمال الذي يندررج تحته التفصيل : فقيل منهم في مبدأ الأمر أن يقروا بألسنتهم وقلوبهم بأن الله سبحانه هو ربهم ومعبودهم بحق، دون سواه، وأن محمداً ﷺ هو رسول الله، وأن جميع ما جاء به من عند ربه حق وصدق، وواجب العمل به . وجعل لذلك عنوانا، هو الكلمة الطيبة "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" .

فمن قال هذه الكلمة بلسانه، وصدق بها بجنانه، و لم يقرنها بما ينقضها من القول أو العمل أو الاعتقاد، دخل في دين الله، وفارق الكفر الذي كان عليه (١).

---

(١) وقد يقول قائل : ولكن أركان الإيمان كما جاءت في الحديث الصحيح أكثر من الإيمان بالله، والإيمان برسوله، فكيف يكتفي بالشهادتين لدخول الإيمان ؟ والجواب على ذلك : أن الإيمان نوعان : إيمان مجمل، وإيمان مفصل، فالأول هو الإيمان بالله وبكل ما جاء به رسول الله ﷺ من غير تعرض لتفصيل ما جاء به، فعندما يشهد العبد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، يكون قد صدق بكل ما جاء به الرسول ﷺ وما أخبر به من أركان الإيمان، وأركان الإسلام، وإن لم يعرفها بالتفصيل، فإن مقتضى ما صدر منه من الشهادتين أنه إذا بلغه شيء مما جاء به الرسول ﷺ آمن به وصدق . لكن الذي بلغه التفصيل بالفعل، فآمن به وعمل به، يكون أقوى إيماناً وأعظم فضلا عند الله تعالى .

وأما من آمن إيمانا مجملا، ثم بلغه شيء مما جاء به الرسول ﷺ فلم يؤمن به كان ناقضا لما صدر منه من الشهادتين، وكان مرتدا بذلك كما سيأتي – انظر : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية – من كتاب مجموعة التوحيد : ص٥١٠، وأصول السرخسي ج١ ص٢٥٣ .

أدلة الأصل المتقدم :

والذي يدل على أن المطلوب هو الإقرار الإجمالي بأمور الإيمان، وهو الإقرار بالشهادتين، وليس الإقرار التفصيلي بكل خصلة من خصال الإيمان والإسلام، هو جملة أحاديث صحيحة، رتبت حصول الإيمان والإسلام، واستحقاق دخول الجنة، وعدم الخلود في النار، على التصديق بأن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله .

وكذلك حوادث السيرة التي دلت على أن الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم، كانوا يحكمون بدخول الشخص في الإسلام إذا نطق بالشهادتين ولا يطالبونه في أول الأمر أن يقرنهما بغيرهما .

وفيما يلي نذكر لك بعض الأحاديث الصحيحة الدالة على ذلك الأصل، ثم نتبعها بذكر بعض وقائع السيرة الدالة عليه .

الأحاديث :

فمن هذه الأحاديث :

١- قال رسول الله ﷺ : (أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك بهما، إلا دخل الجنة) (١) وفي رواية : (لا يلقى الله بهما عبد، غير شاك، فيحجب عن الجنة) (٢) .

٢- وقال ﷺ : (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة) (٣) .

٣- وعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار) (٤) .

وغير هذه الأحاديث مما هو في معناها كثير (٥)، وكلها يدل على أن من مات على التوحيد، ولقي الله عز وجل بالشهادتين دخل الجنة، ولو في المآل، ولم يخلد في النار، وإن عذب فيها على ما كان منه من المعاصي والذنوب .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج١ ص٢٢٤ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج١ ص٢٢٦ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج١ ص٢١٨ .
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ج١ ص٢٢٩ .
(٥) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج١ ص٢١٨ – ٢٤٠ .

السنة العملية ووقائع السيرة :

وفي السنة العملية، والسيرة المطهرة، نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يشهد بالإسلام والإيمان، لمن أقر بالشهادتين ومن ذلك :

١- أخرج مسلم ومالك في الموطأ وأبو داود والنسائي من حديث معاوية بن الحكم السلمي أن النبي ﷺ قال لجارية أراد معاوية بن الحكم أن يعتقها عن كفارة : أين الله ؟ فقالت : في السماء، فقال : من أنا ؟ قالت أنت رسول الله ؟ فقال : أعتقها (١) .

٢- وأخرج أبو داود والنسائي من حديث الشريد بن سويد الثقفي، أن النبي ﷺ قال لجارية : من ربك ؟ قالت : الله . قال : فمن أنا : قالت رسول الله . قال أعتقها فإنها مؤمنة (٢) .

٣- وفي قصة إسلام أبي بكر " : جاء في السيرة أنه لقي رسول الله ﷺ وقال له : أحق ما تقول قريش يا محمد ؟ من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا، وتكفيرك آباءنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : بلى إني رسول الله ونبيه، بعثني لأبلغ رسالته، وأدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شرك له، ولا تعبد غيره، والموالاة على طاعته، وقرأ عليه القرآن .

فأسلم وكفر بالأصنام وخلع الأنداد وأقر بحق الإسلام، ورجع أبو بكر، وهو مؤمن مصدق (٣) .

وهذا الذي دعا الرسول ﷺ إليه أبا بكر إنما هو في حقيقته الشهادتان .

٤- وفي قصة إسلام خالد بن سعيد " ورد في السيرة أنه لقي رسول الله ﷺ، وهو بأجياد، فقال : يا محمد، إلام تدعو ؟ قال : أدعوك إلى الله وحده، لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يضر ولا ينفع، ولا يدري من عبده ممن لا يعبده . قال خالد : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله . فسر رسول الله ﷺ بإسلامه (٤) .

٥- وفي قصة إسلام أبي ذر الغفاري أنه قال : كنت ربع الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة نفر، وأنا الرابع، أتيت رسول الله ﷺ فقلت السلام عليكم يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فرأيت الاستبشار في وجه رسول الله ﷺ (٥) .

---

(١) انظر : الموطأ ص٤٨٥، ٤٨٦، ونيل الأوطار ج٧ ص٢٠٨ .

(٢) انظر : نيل الأوطار ج٧ ص٢٠٨ .

(٣) انظر : السيرة النبوية لابن كثير ج١ ص٤٣٣، والسير الحلبية ج١ ص٤٤٤ .

(٤) السيرة النبوية لابن كثير ج١ ص٤٤٥ .

(٥) السيرة النبوية لابن كثير ج١ ص٤٤٧ .

وهذا سياق مختصر، وقد أخرج البخاري قصة إسلام أبي ذر كاملة، وفيه أن النبي ﷺ قال لأبي ذر بعد أن أسلم : ارجع إلى قومك، فأخبرهم حتى يأتيك أمري، فقال : والذي بعثك بالحق، لأحرض بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتي المسجد فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم قام القوم، فضربوه حتى أضجعوه (١) .

وفي هذا الخبر دلالة واضحة على أن الصحابة كانوا يدخلون الإسلام بالشهادتين .

٦- وفي قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي " تحدثنا السيرة أنه كان سيداً مطاعاً شريفاً في دوس، وكان قد قدم مكة، فاجتمع به أشراف قريش وحذروه من رسول الله ﷺ ونهوه أن يجتمع به، أو يسمع كلامه، قال الطفيل : " فو الله ما زالوا بي، حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئا، ولا أكلمه، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا – قطنا - فرقا من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه، فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة قال : فقمت منه قريبا، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، قال : فسمعت كلاما حسنا فقلت في نفسي واثكل امي، والله إني لرجل لبيب، ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول : فإن كان الذي يأت به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته، قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فاتبعته حتى إذا دخل بيته، دخلت عليه فقلت يا محمد، إن قومك قالوا لي كذا وكذا - للذي قالوا - فو الله ما برحوا يخوفونني أمرك، حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولا حسنا فاعرض علي أمرك . قال فعرض علي رسول الله ﷺ الإسلام وتلا علي القرآن، فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه، ولا أمرا أعدل منه، فأسلمت، وشهدت شهادة الحق ..." (٢) . وشهادة الحق هي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ كما جاءت مفسرة في بعض المواقع .

٧- وفي قصة إسلام خالد بن الوليد، تحكي لنا كتب السيرة أنه قدم على رسول الله ﷺ في المدينة، وكان قد استكتبه أخوه الوليد بن الوليد يدعوه إلى القدوم والإسلام، قال خالد : فلقيني أخي، فقال : أسرع، فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فَسُرَّ لقدومك، وهو ينتظركم - وكان معه عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة -، فأسرعنا المشي، فاطلعت عليه، فما زال يبتسم إلي حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة، فرد علي السلام

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ج٧ ص١٣٩، حياة الصحابة ج١ ص٢٩٠، السيرة الحلبية ج١ ص٤٥١ .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام ج١ ص٤٠٧، ٤٠٨ .

بوجه طلق : فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال : تعال، ثم قال رسول الله ﷺ : (الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير) (١) .

وهكذا كان مبدأ إسلام كثير من الصحابة، رضوان الله عليهم، قبل الهجرة وبعدها (٢) .

فهذه الوقائع، وتلك الأحاديث الصحيحة تدل مجتمعة على أمر واحد اتفق عليه أهل السنة، وهو أن الدخول في دين الله لا يكون إلا بالشهادتين، وليس لأحد بعد هذه النصوص أن يحكم بإسلام أحد إذا لم يقر بهما بلسانه وقلبه، كما أنه ليس لأحد بعدها أن يحكم بكفر أحد إذا أقرهما، و لم يصدر منه ما ينقضهما أو ينقض إحداهما .

هذا ولا يكفي للدخول في الإسلام مجرد إحدى الشهادتين، ولا بد منهما جميعاً .
وقد يقال : قد ورد في بعض الأحاديث المتقدمة، غيرها، الاكتفاء بالشهادة الأولى "لا إله إلا الله" . والجواب : أن المقصود هو الشهادتان، لأنه جاء مفسرا في الأحاديث الأخرى بهما جميعاً (٣) .

ولا خلاف بين العلماء أن النطق بالشهادتين والتصديق بهما لا يكون منجيا من الخلود في النار، وكافيا في دخول الإيمان والإسلام، إذا كان مقترنا بما ينقضهما أو ينقض إحداهما : فلا يحكم بإيمان إنسان جاء يقول : أقر بأنه لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، ولكن لا أعترف بوجوب الزكاة والحج، أو بحرمة الزنا أو الربا أو القتل أو غير ذلك من أحكام الإسلام التي أخبر بها القرآن أو الرسول ﷺ ولكني أعتقد أنها كانت خاصة بقوم أو بجيل معين، أو قرن إقراره بالشهادتين بتفسير خاص لهما يؤول إلى إنكار توحيد الله في بعض صفاته وأسمائه . أو أقر بهما وهو ينكر بعض القرآن ولو آية أو كلمة أو حرفا، فلا تنفعه الشهادتان وقد جاء معهما بما يكذب به القرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام (٤) .

وكذلك من كان على ملة لا تكفي الشهادتان في نقض مبدأ من مبادئها أو أكثر، ولا بد في حقه من أن يتبرأ من ذلك المبدأ بالإضافة إلى الشهادتين، فلو أن شخصاً

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج٢ ص٥٢٠ .

(٢) انظر مثلا : قصة إسلام أبي العاص بن الربيع في سيرة ابن هشام ج٢ ص٣٠٣، ٣٠٤، وقصة إسلام عمر بن الخطاب في عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس، وقصة إسلام حمزة في السيرة الحلبية ج١ ص٤٧٧ .

(٣) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ج١ ص١٤٩، ٢١٩ .

(٤) انظر : رسالة كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب من جملة رسائل مطبوعة بعنوان : المجموعة العلمية السعودية من دور علماء السلف الصالح ص١٤١، ١٤٢ .

كان يعتقد بالتوحيد، وبأن محمداً رسول الله، ولكن إلى قوم معينين أو زمن معين، فإن نطقه بالشهادتين لا يكون كافيا لاعتباره مسلما لأن اعترافه برسالة محمد ﷺ لا ينفي ما كان مشهورا من اعتقاده باختصاصها بقوم أو بزمن، فلا بد مع هذا من أن يقر بأن محمدا رسول الله إلى الناس أجمعين (١) .

وقد ذكر بعض العلماء في هذا الموضوع، قاعدة عامة، مفادها أنه لا يحكم بإسلام الشخص إلا إذا أقر بالشهادتين، وكان هذا الإقرار كافيا في نقض جميع معتقداته الباطلة التي اشتهر بها، فإن لم يكن كذلك كان لا بد من النطق بهما والتبري من المعتقدات الباطلة التي لم يندرج نقضها تحت الشهادتين (٢) .

ويجدر بالملاحظة في هذا المقام أن كلمة "لا إله إلا الله" تنقض جميع التصورات الباطلة عن الخالق، وربوبيته، وألوهيته، ذلك أنها تقتضي كما علمت توحيد الله في ذاته، وفي صفاته وأسمائه وأفعاله، وتتريهه عن كل ما لا يليق به، فمن نطق بها كان متبرئا من جميع اعتقاداته الباطلة حول الخالق عز وجل . وأما الشهادة الأخرى فإنها تنقض معظم التصورات الباطلة حول مكانة نبينا محمد ﷺ وحول ما أخبر به من المغيبات جميعها (٣)، ولا تنقض بعضها، كما تقدم من اعتقاد بعض الناس بخصوصية رسالته إلى بعض الأقوام، فلا بد في حق هؤلاء من التصريح بعموم رسالته عليه الصلاة والسلام .

وهذا الذي تقدم خاص بمن كان كافرا ابتداء، و لم يسبق له الدخول في دين الله وأما المرتد عن الإسلام، فإنه لا يحكم بإسلامه إلا إذا أقر بما كان قد جحده من أمور الإيمان، بالإضافة إلى الشهادتين : فإن كان ارتداده بسبب جحوده الوحدانية أو الرسالة اكتفي بهما، وإلا فلا بد منهما وأن يقر معهما بالأمر الذي كان قد أنكره (٤)، فمن كان ينكر فريضة الزكاة مثلا، أو حرمة الربا أو الزنا، فإنه لا يعود إليه إسلامه حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقر بفرضية أو حرمة ما أنكره .

ولعل من المفيد في هذا المقام أن ننبه إلى ما تقدم ذكره عند الكلام عن حقيقة الإيمان من اتفاق العلماء على النطق بالشهادتين يكفي لاعتبار الناطق بهما مسلما، من حيث الظاهر، ومن أجل إجراء الأحكام الدنيوية عليه . وأنه لا يكفي من أجل الخلاص من الخلود في النار، حتى يقترن بالتصديق القلبي . فمن أقر بهما مع ما تقدم من الشروط عومل بمقتضى الإسلام في الحياة الدنيا، وإن كان منافقا في حقيقة أمره، لأننا مأمورون

---

(١) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ج١ ص١٤٩، وشرح السير الكبير ج١ ص١٥٠ والمغني لابن قدامة ج٩ ص٢١، والمهذب ص٢٢٣ .

(٢) انظر : شرح السير الكبير ج١ ص١٥٠ .

(٣) الدين الخالص : ج١ ص١٤٨ .

(٤) المغني لابن قدامة ج٩ ص٢١، حاشية ابن عابدين ج٣ ص٣٩٧ .

ببناء الأحكام في هذه الحياة على الظاهر، وترك السرائر لله تعالى، فإنه لا يعلمها إلا هو سبحانه وقد رأيت فيما تقدم إنكار النبي ﷺ على أسامة بن زيد عندما ترك العمل بالظاهر، وقتل من قال : لا إله إلا الله، ظنا منه أنه لم يكن مخلصا في قوله .

متى يصير المؤمن كافرا

(نواقض الإيمان)

عرفت فيما تقدم كيف يدخل الناس في دين الله عز وجل، والذين يلجون باب الإيمان أنواع :

فمنهم من يثبته الله عليه، فيموت مقرا مصدقا بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ومنهم من يرتد على عقبيه بسبب إنكاره وجحوده .

والنوع الأول يتفاوت فيه المؤمنون : فمنهم المحسنون، ومنهم المقتصدون، ومنهم الظالمون لأنفسهم . ومنهم من يدخل الجنة بغير حساب، ومنهم من يحاسب حساباً يسيرا، ومنهم من يعذب في النار، حتى يمن الله عليه، فيخلصه منها بفضله سبحانه .

وأما أسباب الخروج من الإسلام بعد الدخول فيه، فنذكر لك أولا القاعدة الجامعة التي اتفق عليها أهل السنة، ثم نشرع في تفصيلها :

القاعدة :

فأما القاعدة العامة التي تحكم ما يكفر من الاعتقادات والأقوال والأفعال، فنختار في التعبير عنها ما قاله الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى في العقيدة الطحاوية : (ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين... ولا تكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول : لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله... ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه) (١) .

وبيان هذه القاعدة أن الشارع قد جعل للإيمان والإسلام مدخلا وبابا يدخل منه وهو كما علمت الإقرار والتصديق بالشهادتين، فمن ولج إلى الإسلام من هذا الباب، فإنه لا يخرج إلا أن يصدر عنه قول أو عمل أو اعتقاد يناقض إقراره السابق وتصديقه بالشهادتين . وقد علمت فيما تقدم أن معنى شهادة "لا إله إلا الله" توحيد الله في ربوبيته، وأسمائه وصفاته، وأفعاله . وتوحيد في ألوهيته، وعدم توجه الإنسان بالعبادة إلى غيره سبحانه . وأن معنى شهادة "محمد رسول الله" الإقرار والتصديق بكل ما جاء به محمد رسول الله ﷺ من الشرائع، وما أخبر به من أمور الغيب، وأنه من عند ربه عز وجل،

(١) انظر العقيدة الطحاوية مع شرحها ص ٣٥٠، ٣٥١، ٣٧٢ .

والاعتراف له بجميع أخلاق وصفات النبوة، من صدق وأمانة وفطانة وتبليغ وعصمة وغير ذلك .

وبعد هذا فإن من قال قولا أو فعل فعلا يدل على إنكار شيء مما يكون قد نقض إقراره السابق بالشهادتين، وخرج من دين الله سبحانه، فإن كان قوله أو فعله مطابقا لحقيقة نيته واعتقاده، كان كافرا في الدنيا والآخرة فيعامل بأحكام الكفار في الدنيا، وتطبق عليه أحكام الردة . والتي من أهمها الاستتابة، ثم القتل إن لم يتب . ويكون من المخلدين في نار جهنم إن مات على هذه الحال .

وأما إذا أذنب المؤمن، وقال قولا أو فعل فعلاً يعد في الشرع معصية لله تعالى، فلا يكون هذا بمجرده دليلا على خروجه من الإيمان، وإن لم يتب عنه، إن لم يكن فيه ما يدل على نقضه الشهادتين أو أحداهما، وهو في مشيئة الله : إن شاء عذبه بذنبه ومعصيته، وأدخله النار، ثم مآله إلى الجنة، لكثرة الأحاديث الصحيحة الدالة على أنه يخرج من النار من مات وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان وإن شاء سبحانه غفر له، ولم يعذبه وأدخله الجنة بغير عذاب في النار، فإن الله سبحانه يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء : ١١٦] .

ومن هنا تعلم أن الأمور التي تكون سببا في الخروج من دين الله عز وجل تتنوع إلى أنواع جميعها يرجع إلى تلك القاعدة العامة . وكل نوع يدخل فيه صور وتفصيلات كثيرة يصعب حصرها . ولكن تلك الأنواع يمكن حصرها في أربعة هي :

١- نوع يتضمن إنكار الربوبية أو الطعن فيها .

٢- نوع يتضمن الطعن في أسماء الله وصفاته .

٣- نوع يتضمن الطعن في الألوهية .

٤- نوع يتضمن إنكار الرسالة أو الطعن في صاحبها عليه الصلاة والسلام .

فهذه أربعة أنواع : ويدخل في كل واحد منها صور من الأفعال والأقوال والاعتقادات جميعها يعود على الشهادتين بالنقض، وتخرج صاحبها من الإسلام، والعياذ بالله تعالى . وفيما يلي تفصيل كل نوع من هذه الأنواع، وتوضيحه بالأمثلة :

النوع الأول :

فقد علمت أن أول أنواع التوحيد هو توحيد الله في الربوبية والملك، وهو الاعتقاد بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه، وخالق كل شيء ورازقه، والمتصرف فيه وحده، بمشيئته وعلمه وحكمته سبحانه . فكل قول أو اعتقاد فيه إنكار لهذه الخصائص الربانية أو بعضها، كفر وردة، فيدخل في هذا إنكار الخالق، والقول بقدم شيء أي لم يخلقه الله سبحانه، أو اسناد الخلق أو التدبير إلى غير الله عز وجل، كالصدفة، والطبيعة، ونحوهما، أو إنكار ملك الله لكل مخلوق، أو ادعاء الرزق من غير الله تعالى، أو إشراك غيره

معه في ذلك، أو ادعاء أن الله خلق الخلق وأهملهم، وأنه لا يتصرف فيهم، ولا يحفظهم، ولا يدبر أمرهم، أو نحو ذلك مما فيه مساس بخصائص الربوبية .

وكذلك يعد كفرا وردة أن يدعي شخص لنفسه شيئا من هذه الخصائص، كأن يدعي لنفسه الربوبية، كما قال فرعون : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعۡلَىٰ﴾ [النازعـــات : ٢٤]، أو أن يدعي أنه يملك أو يرزق أو يدبر شيئا من دون الله تعالى، كذلك يكفر من يصدقه في هذه الدعوى .

النوع الثاني :

وهو ما يتضمن الطعن في النوع الثاني من أنواع التوحيد، وهو توحيد الله فيما يليق به من الأسماء والصفات .

فقد أثبت الله سبحانه لنفسه، وأثبت له رسول ﷺ صفات وأسماء ونفى سبحانه عن نفسه، ونفى عنه رسوله صفات : فمن نفى أو انتقص شيئا مما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله، فقد كفر، وكذلك من أثبت لله شيئا نفاه عنه رسوله . فكفر الصفات نوعان : كفر نفي وكفر إثبات .

ويدخل في الأول : نفي أية صفة من صفات الله سبحانه، كنفي علمه الكامل أو قدرته أو حياته أو قيوميته أو سمعه أو بصره أو استوائه على العرش أو كلامه أو رحمته أو جبروته أو كبريائه، أو غيرها مما هو ثابت لله في الكتاب أو السنة .

ويدخل فيه أيضا تأويل صفات الله وأسمائه بما ينقصها أو يحد من كمالها، كمن يقر بعلم الله، ولكنه يدعي أنه العلم الإجمالي، وأن الله تعالى لا يعلم الجزئيات والتفصيلات، أو يشبه صفة من تلك الصفات بما عند المخلوقات، فيدعي أنه عز وجل يسمع كما يسمع الناس أو يبصر كبصرهم، ونحو ذلك .

ويدخل في النوع الثاني، وهو كفر الإثبات إثبات أية صفة لله نفاها سبحانه عن نفسه، أو نفاها عنه رسول الله ﷺ كإثبات الولد له سبحانه، أو البنات أو الصاحبة أو السنة أو النوم أو الغفلة أو الموت، أو أي نقص من النواقص التي تعتري البشر .

وكذلك يكفر كل من يثبت شيئا من صفات الله لنفسه أو لمخلوق، ويكفر من يصدقه في دعواه، كقول من قال : أنا أعلم كعلم الله، أو فلان عنده من الحكمة كما عند الله سبحانه وتعالى فيكفر هذا القائل، ويكفر من يصدقه في قوله، لأن إثبات الشريك لله في صفاته انتقاص منه جل وعلا، وكل انتقاص منه أو من صفاته كفر وردة .

النوع الثالث :

وهو كل قول أو فعل أو اعتقاد يتضمن الطعن في النوع الثالث من أنواع التوحيد، وهو توحيد الألوهية، وهو الشهادة بأن الله وحده هو المعبود بحق، وأن سواه لا يستحق أي شيء من العبادة، فمن قال قولا أو فعل فعلا أو اعتقد اعتقادا يتضمن إنكار

هذا الحق لله سبحانه، أو انتقاص شيء منه، أو إثباته، أو إثبات شيء منه لغير الله عز وجل، فقد كفر وارتد عن دين الله .

وأكثر ارتداد الناس وكفرهم يرجع إلى هذا النوع، فإن أكثرهم في الماضي والحاضر يقرون بوجود الخالق سبحانه، وكثير منهم يثبت له خصائص الربوبية وصفاتها من قدرة وتدبير ورزق وإحياء وإماتة وغيرها .

وقد ذكر الله في كتابه الكريم أن المشركين الذين بعث الله إليهم كانوا مقرين بأن الله خالقهم، قال تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف : ٨٧] . وقال أيضاً : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف : ٩] .

وإنما دخل الكفر على معظم الكافرين بسبب إنكارهم استحقاق الباري بأن يفرد في توجيه العبادة إليه سواء أكان هذا الإنكار بالقلب وهو الاعتقاد، أو بما يدل عليه من القول أو الفعل، وبسبب إقرارهم باستحقاق غيره لهذا الأمر سواء أكان هذا الإقرار تصديقا بالقلب واعتقادا، أم قولا أو فعلا يدل عليه .

والواقع أن هذا النوع من الكفر يدخل صاحبه في النوعين السابقين من الكفر، لأن من يعترف لله سبحانه بأنه الخالق لكل شيء، والمدبر لكل شيء، ويعترف له بجميع صفات الجلال والكمال يقتضيه ذلك أن يعترف له وحده دون غيره بالألوهية المطلقة، واستحقاق العبودية له دون سواه، فإن أنكر ذلك وعبد غيره أو عبد معه غيره، فإن اعترافه لله بالربوبية باطل ولا قيمة له .

ويقول الصنعاني : (فمن شأن من أقر لله تعالى بتوحم الربوبية أن يفرده بتوحيد العبادة، فإذا لم يفعل ذلك فالإقرار الأول باطل) (١) .

ولذا كان توحيد الله في عبادته موضوع الامتحان للعباد في هذه الحياة الدنيا قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

ومن هنا يتضح أن شهادة أن "لا إله إلا الله" يناقضها أمران :

الأول : نفي استحقاق الخالق لأن يعبد بأي نوع من أنواع العبادة .

الثاني : إثبات هذا الاستحقاق لأي مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى .

فكل قول أو تصرف أو اعتقاد يتضمن أحد هذين الأمرين يدخل صاحبه في الكفر والردة . والعبادة التي لا تستحق إلا لله هي الخضوع والتذلل والطاعة والانقياد، مما يدخل فيها الحب والخشية والاستغاثة والدعاء والتوكل والرجاء، والركوع والسجود والصوم والذبح، والطواف، والخشوع وغيرها .

---

(١) تطهير الاعتقاد ص٩ .

وبناء عليه فإن من ينفي بقول أو اعتقاد أو عمل استحقاق الله لهذه المعاني يكفر، فيكفر من قال أو اعتقد أن الله سبحانه لا يخشى أو لا يدعى أو لا يستعان به أو لا يركع له أو يرجى، أو يسخر ممن عبد الله أو استخف بمن يدعو الله أو يستعين به، أو يرجوه بسبب دعائه لله واستعانته به، أو الصلاة له أو الصوم، أو الطواف أو أي فعل أو قول يعده الشرع عبادة، لأن استهزاءه واستخفافه لذلك أو لبعضه يدل بصورة قاطعة على عدم اعتقاده باستحقاق البارئ لهذه العبادات. كذلك يكفر من أنكر استحقاقه للطاعة وامتثال أمره واجتناب نهيه، فإن لله عز وجل شرعا ضمنه كتابه، وأوصى به إلى رسوله ﷺ، فمن ادعى أن شيئا من هذا الشرع لا يستحق الامتثال والتطبيق أو لا يصلح في هذا الزمان أو نحو ذلك كفر بهذه الدعوى، لأن خصائص الألوهية الأمر والحكم والتشريع ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف : ٤٠]، ومن خصائص العبودية الامتثال والطاعة.

وفي مقابل ذلك يكفر كل من يثبت لغير الله شيئا من تلك العبادات، فيكفر من يدعي استحقاقه لتلك العبادات، أو أمر الناس بممارستها له ومن أجله، ويكفر من يصدقه ويرضى بقوله أو يمارس بعض تلك العبادات له، وكذلك من أحب أن يعبد بأصناف تلك العبادات وإن لم يأمر الناس بذلك، كمن أحب أن يخشى أو أن يستعان به أو يتوكل عليه، أو يرجى (١)، أو يسجد له أو يركع له أو يخشع الناس له أو غير ذلك من المعاني التي لا يصح التوجه بها إلا الخالق عز وجل.

ويكفر من ادعى أن الحق في تشريع ما لم يأذن به الله، بسبب ما أوتي من السلطان والحكم، فيدعي أن له الحق في تحليل الحرام، وتحريم الحلال، ومن ذلك وضع القوانين والأحكام التي تبيح الزنا والربا وكشف العورات أو تغيير ما جعل الله لها من العقوبات المحددة في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ أو تغيير المقادير الشرعية في الزكاة والمواريث والكفارات والعبادات وغيرها مما قدره الشارع في الكتاب والسنة ؟

ويدخل في الكفر من يؤمن بهذه الطواغيت ويعترف لها بما ادعته من حقوق الألوهية، فقد قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

---

(١) والمقصود بذلك الخشية والاستعانة والرجاء فيما لا يقدر عليه إلا الله، وهي خشية الغيب والاستعانة في تحقيق الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، وكذلك الرجاء فيما هو من اختصاص الله سبحانه. وأما فيما يقدر عليه الناس، فلا يكفر فيها العبد، كمن خاف من السلطان وقد هدده بالسجن أو الموت أو استعان بصديق في قضاء حاجة يقدر عليها، أو قال شخص لآخر : أرجوك أن تفعل كذاك مما يقدر عليه الناس، فكل ذلك لا يدخل في الكفر.

الطَّاغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦] . وقال أيضاً ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٦]، والعروة الوثقى هي شهادة أن لا إله إلا الله فهذا هو معناها : أن تنفي جميع أنواع العبادة عن غير الله تعالى وتثبيت جميع أنواع العبادة لله وحده لا شريك له (١) .

ومن هنا تعلم أنه إذا قام حاكم ينتحل الحق في إصدار تشريعات مناقضة لما هو ثابت في الكتاب أو السنة، يحلل به ما حرم الله، أو يحرم ما أحله سبحانه، كفر وارتد عن دين الله القويم، لأنه يعتقد بذلك أنه يسعه الخروج عن شريعة الإسلام بما يشرع للناس، ومن اعتقد ذلك كان من الكافرين (٢) .

ولكن هذا الحكم لا يدخل فيه إصدار التشريعات التي لم تتناولها نصوص الشرع أو لم تتعرض لها، ولا الأحكام الاجتهادية التي اختلف العلماء فيها .

فمن سن قانونا يبيح بموجبه الزنا أو الربا أو أي شيء من المعاصي المتفق على حرمتها في شرع الله فقد كفر، ويكفر جميع من يسهم برضاه في إصدار مثل هذا القانون، ولكن لا يكفر من سن قانونا ينظم فيه السير مثلا أو نحوه مما لم يتعرض له الشرع بالذكر، ولا يكفر من سن قانونا ينظم فيه الأسعار، ولا يقال إن التسعيرة حرام لأن بعض العلماء لا يجيزه، ذلك أنه امر اجتهادي، وقد قال به بعض الفقهاء .

وتعلم أيضا أنه من يكفر من الناس من يعترف لهذه الطواغيت بهذه الحقوق ويرضى بها، ويتحاكم إليها وإلى شرائعهم المناقضة للإسلام في أصوله وما علم منه بالضرورة، وقد قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾ .

وقال تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى : ٢١] .

النوع الرابع من النواقض :

وهو كل قول أو فعل أو اعتقاد يتضمن الطعن في الرسالة أو في صاحبها عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم، لأن ذلك ينقض شهادة أن محمدا رسول الله، فإن هذه الشهادة تعني : التصديق بكل ما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه حق وصدق وأن محمد ﷺ أهله ربه وحلاه بجميع الصفات التي تمكنه من أداء الرسالة وتبليغها على أتم وجه وأكمله .

(١) رسالة محمد بن عبد الوهاب في معنى الطاغوت – الجامع الفريد ص٢٦٦ .
(٢) نواقض الإسلام لمحمد بن عبد الوهاب – الجامع الفريد ص٢٧٨ .

وبهذا تعلم أنه ينقض هذه الشهادة أحد أمرين :

الأول : الطعن في رسول الله ﷺ .

الثانية : إنكار بعض ما أخبر به رسول الله ﷺ أو الطعن فيه .

ويدخل في الأمر الأول نسبة أي شيء للرسول # مما يتناقض مع اصطفاء الله له لتبليغ دينه إلى عباده : فيكفر كل من طعن في صدق الرسول أو أمانته، أو عفته أو صلاح عقله، ونحو ذلك، ويكفر من سب الرسول ﷺ أو استهزأ أو استخف به أو بتصريف من تصرفاته الثابتة .

ويدخل في الأمر الثاني، إنكار أي أمر من الأمور التي أخبر بها، فيكفر من أنكر ما أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام وثبت عنه من البعث والحساب والميزان والصراط والجنة والنار ونحوها من المغيبات .

ويكفر من أنكر شيئا من القرآن مهما كان (١)، لأن جميع آيات القرآن أخبر # أنها من كلام الله تعالى، فمن جحد شيئا من ذلك فقد كذب الرسول عليه الصلاة والسلام . ويكفر من أنكر حكما من الأحكام الثابتة في القرآن أو السنة، فيكفر كل من أنكر فريضة الصلاة أو الزكاة أو حرمة الزنا أو السرقة، أو ادعى زيادة ركعة في إحدى الصلوات، أو جوازها بدون وضوء ونحو ذلك .

ولكن يعذر من جحد شيئا ليس مشتهرا في الدين ولا يعلمه إلا خاصة العلماء، ولا يكفر أيضا من أنكر حكما مجتهدا فيه وليس مجمعا عليه .

ويقول الإمام النووي : (وكذلك الأمر في كل من أنكر شيئا مما أجمعت الأمة عليه من أمور الدين إذا كان علمه منتشرا كالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان والاغتسال من الجنابة وتحريم الزنا والخمر ونكاح ذوات المحارم ونحوها من الأحكام، إلا أن يكون حديث عهد بالإسلام ولا يعرف حدوده، فإنه إذا أنكر شيئاً منها جهلا به لم يكفر ... فأما ما كان الإجماع فيه معلوما من طريق علم الخاصة كتحريم نكاح المرأة وعمتها وخالتها وأن القاتل عمدا لا يرث وأن للجدة السدس وما أشبه ذلك من الأحكام، فإن من أنكرها لا يكفر بل يعذر فيها لعدم استفاضة علمها في العامة) (٢) .

ويكفر من جحد آية من القرآن أو أنكر أمرا غيبيا أو كذب خبرا عما كان وما سيكون مما ورد به القرآن الكريم .

ويكفر من جحد إرسال الرسل قبل محمد ﷺ أو جحد ما ذكر من قصصهم مع أقوامهم، ومن أنكر الكيفية التي ذكرها الله عن بداية الخلق أو ادعى كيفية أخرى تخالف

---

(١) انظر شرح ملا علي القاري على الفقه الأكبر ص١٦٧ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ج١ ص٢٠٥ .

ما ذكر في آيات الكتاب الكريم، ومن أنكر الجن والشيطان أو أنكر الكرسي والعرش واللوح والقلم ومن أنكر وجود شخصية تاريخية أثبت القرآن وجودها ومن أنكر رسالة أو نبوة من ذكر القرآن، أنهم رسل وأنبياء، وكذلك من طعن في أحدهم بما لا يليق باختيار الله لهم وأنكر أن الله أرسل رسلاً غيرهم لم يسمهم، لأنه صرح بذلك في أكثر من موضع، ويكفر كذلك من أنكر إعجاز القرآن الكريم لأن هذا الإعجاز ثابت بإخبار الله عز وجل وبالواقع، وكذلك من أدعى النبوة بعد محمد ﷺ أو صدق من يدعيها لأن القرآن أخبر أن محمدا خاتم النبيين .

الرضى بالكفر وعدم الرضى بالإسلام كفر :

ومن المفيد هنا أن نكرر ما ذكرناه سابقا، وهو أن تلك الصور والتفصيلات مما يحبط الشهادتين ليست إلا أمثلة، وقد يوجد غيرها .

ونوجه الانتباه هنا إلى أمر قد يظن أنه لا يدخل فيما سبق، مع أنه في حقيقته ينقض الشهادتين ويتضمن إنكار التوحيد والرسالة، ألا وهو الرضى بالكفر وعدم الرضى بالإسلام (١) . فإن من قال : صدقت لمن أنكر الشهادتين ومن قال : كذبت لمن نطق بهما، لا يشك أحد في كفره حتى وإن كان القول الأول مجاملة للقائل، وهنالك أساليب مختلفة من الأقوال والأعمال والأحوال لا تقل دلالتها في عرف الشارع وفي عرف الناس، وعرف اللغة عن قول : صدقت لمن كفر أو كذبت لمن أسلم، فمن صدرت منه خرج من دين الإسلام، ومن هذه الأساليب :

أولا : أساليب الرضى بالكفر :

١ - عدم تكفير الكافرين من ملحدين ومرتدين ومشركين :

أو الشك في كفرهم أو تصحيح أي مذهب من مذاهبهم الكافرة (٢) . فمن علم من شخص أو جماعة أو مذهب أو حزب من الأحزاب أو طائفة من الطوائف أو أهل دين من الأديان كفرا واضحا، فاعتقد عدم كفرهم أو ردتهم، أو قال عن مذاهبهم أو بعضها أنه صحيح، فقد دخل معهم في الكفر وأصبح مثلهم .

ولكن هذه القاعدة تحتاج إلى بيان واحتياط عند تطبيقها :

ذلك أنه يفترض من أجل الحكم بردة مثل هذا الإنسان أنه يعلم حقيقة من يحكم بإسلامهم وعدم كفرهم، فإن كان لا يعرف حقيقتهم وما هم عليه من الكفر، فلا يجوز الحكم عليه بالردة من أول الأمر، وإنما يبين له بوسائل البيان السليمة، التي لا يبقى بعدها

---

(١) انظر شرح ملا على القاري على الفقه الأكبر، ص١٦٥ .

(٢) نواقض الإسلام – محمد بن عبد الوهاب – انظر الجامع الفريد ص٢٧٧ .

شك فيما ينسب إليهم، فإن أنكر بعد هذا كفرهم اعتبر حكمه هذا ردة وكفرا، لأن إنكاره في حقيقته تبن لمذهبهم واعتراف بصحته .

على أنه ينبغي أن يلاحظ أن كفر بعض الطوائف أصبح مشتهرا ومعلوما بين الناس بالضرورة كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم، فيكفر كل من ينكر كفر هؤلاء من أول الأمر .

وأما المذاهب والطوائف التي لا يفترض اشتهارها بين الناس وعلم مبادئها الكافرة، فينبغي أن يتريث في تكفير من لا يحكم بردة أتباعها، حتى يبين له بما يقطع الشك ويعرف على مواقع الكفر في هذه المذاهب والطوائف (١)، وخاصة أن بعض هذه الطوائف تنسب نفسها إلى الإسلام، وتتظاهر أمام العامة أنها لا تنكر شيئا من الإسلام، وتخفي عنهم بادئ الأمر ما ينفرهم عنها، مما فيه الإنكار الصريح الواضح لمبادئ الإسلام أو بعضها .

كذلك يشترط لتكفير هذا الصنف من الناس أن يكون المحكوم عليهم قد كفروا بأمر متفق على الكفر بسببه، فإن كان مختلفا فيه بين العلماء المعتبرين، بعضهم يعده من النواقض وبعضهم لا يعده، لم يجز تكفير من لم يكفرهم، كتكفير الخوارج وبعض الفرق الأخرى التي لم يتفق على ردتها . ويدخل في هذا من لم يكفر تارك الصلاة عمدا، الذي لم يجحد فرضيتها . فإذا تحققت هذه الشروط، وأنكر المسلم كفر الكافرين وصحح ما هم عليه كان في حقيقة الأمر كالناطق المعتقد بالسبب الذي أدخلهم في الكفر، فيكون ناقضا بذلك ما سبق منه من الشهادتين . ومن جهة أخرى يكون منكرا للنصوص والدلائل التي تكفر أمثالهم فيكفر بسبب إنكاره لهذه النصوص .

٢ - موالاة الكفار وإظهار موافقتهم على دينهم :

فقد علمت أن من معنى شهادة أن لا إله إلا الله نفي استحقاق العبادة لغير الله عز وجل، فوق ما تدل عليه من إثبات هذا الاستحقاق لله وحده، وهو ما دل عليه قوله تعالى أيضا ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦]، فلا يكفي في تحقيق معنى هذه الشهادة أَن يعبد الإنسان ربه، حتى يجتنب عبادة غيره من جهة، وينفي استحقاق أي مخلوق لأي نوع من أنواع العبادة التي لا تصح إلا لله من جهة أخرى، هذا أمر متفق عليه ولا جدال فيه، ومما لا جدال فيه أيضا من أظهر خصائص الكفار أنهم لا يعبدون الله حق عبادته، أو أنهم يشركون معه في العبادة غيره، زيادة على ما قد يكون منهم من إنكار للرسالة أو طعن في الرسول ﷺ أو غير ذلك من الأمور المناقضة للإسلام والمضادة للشهادتين، وهذا أمر متفق عليه أيضا .

(١) مجموعة التوحيد ص١٢٦ .

وبناء على هاتين المسلمتين يتحدد الموقف الذي يتفق مع الشهادتين من أعداء الله وأعداء دينه من الكفار والمشركين والمرتدين . ويتبين الحد الذي يجب أن يقف عنده المسلم ولا يتجاوزه من أجل الحفاظ على دينه وإيمانه في معاملتهم وبناء العلاقات معهم، وهو الحد الذي لا يفهم من الوقوف عنده الموافقة على دينهم والرضى عن كفرهم، فإذا تخطى المسلم هذا الحد ودخل في طاعة الكفار وأظهر الموافقة على دينهم الباطل، وأعانهم عليه بالنصرة والمال، ووالاهم، وقطع الموالاة مع المسلمين، ورفع علاقته معهم على علاقته مع المسلمين وضحى بالثانية من أجل الأولى فقد صار منهم وارتد عن دينه، وكان كافرا من أشد الناس عداوة لله تعالى ورسوله ﷺ . ولا يستثنى من ذلك إلا المكره، وهو الذي يقع تحت سلطان الكفار، فيأمرونه بطاعتهم في باطلهم، ويهددونه بالقتل أو يشرعون في تعذيبه، فيجوز له عندئذ فقط الموافقة باللسان مع طمأنينة القلب بالإيمان . ومع أن هذا الأمر يدخل في معنى الشهادتين كما تقدم فإنه ورد في القرآن آيات كثيرة جداً تفرض على المؤمن قطع الولاء للكفار، وتوجب عليه معاداتهم في الدين، ويدل كثير من هذه الآيات في ظاهره على كفر وردة من لم يقم بهذه الفريضة، فإذا رجعت إلى المعنى الذي تدل عليه الشهادتان وجمعته مع هذا الظاهر الذي تدل عليه هذه النصوص عرفت أنه على حقيقته ولا يجوز تأويله، ونذكر لك فيما يلي بعض هذه النصوص، لا جميعها فإنها كثيرة لا يزيد عليها إلا ما جاء بخصوص التوحيد والأمر بعبادة الله :

أ- قوله تعالى : ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران : ٢٨] .

فنهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء وأصدقاء وأصحابا من دون المؤمنين وأخبر أن من فعل ذلك فليس من الله في شيء، قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ٢٨] : (ومعنى ذلك : لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهرا وأنصارا توالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين وتدلونهم على عوراتهم فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء، يعني بذلك فقد برئ من الله وبرئ الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر) (١) .

وأما قوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ فهو كقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وهو أن يكون المسلم مقهورا معهم لا يقدر على عداوتهم، فيظهر لهم المعاشرة والقلب مطمئن بالإيمان بالله، ومليء بالعداوة والبغضاء للكفر وأعداء الله، قال

(١) تفسير الطبري ج٦ ص٣١٣ .

ابن جرير : (إلا أن تتقوا وتضمروا لهم العداوة ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل) (١) .

وسيأتيك إن شاء الله تعالى بيان حد الإكراه المعتبر في هذا المقام .

ب- قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة : ٥١ – ٥٢] .

فنهى سبحانه وتعالى عن موالاة اليهود والنصارى، وذكر أن من والاهم كان منهم، فمن تولى اليهود فهو يهودي، ومن تولى النصارى فهو نصراني، وكذلك من تولى أي كافر فهو مثله في كفره، لأن المتولي متبين لما عليه ذلك الكافر وراض عنه، فيكون مثله من حيث الكفر . وقد روى ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين قال : قال عبد الله بن عتبة : (ليتق أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يشعر)، قال فظنناه يريد هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة : ٥١ – ٥٢] .

ثم تأمل عذر هؤلاء الذين كفروا بموالتهم لليهود والنصارى، والذي لم يقبله الله عز وجل منهم، وهو خوفهم من أهل الكتاب وسلطانهم، على مراكزهم وأموالهم ودنياهم، فإن تأملك هذا يعطيك ضوءاً وإشارة إلى معنى الإكراه، وما يعتبر منه وما لا يعتبر، وهو ما وعدناك بالكلام عنه بعد الانتهاء من ذكر هذه الآيات :

ج- قوله تعالى : ﴿تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ، وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة : ٨٠، ٨١] .

فيبين سبحانه وتعالى أن الإيمان بالله والنبي مرتبط بعدم ولاية الكفار، فثبوت موالاتهم يوجب عدم الإيمان، لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم، ومن جهة أخرى فقد رتب الله تعالى على موالاة الكافرين سخطه والخلود في العذاب، وأخبر أن موالاتهم لا تحصل من مؤمن، فإن أهل الإيمان يعدونهم ولا يوالونهم .

(١) تفسير الطبري ج٦ ص٣١٣ .

ثم انظر كيف اعتبر سبحانه وتعالى عدم الموالاة للكفار دخلا في معنى الشهادتين اللتين بر عنهما بالإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه . ووجه الارتباط هو ما قدمناه لك في مبدأ الكلام عن الموالاة للكفار والموافقة على دينهم .

د- قوله تعالى : ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [النساء : ١٣٨، ١٣٩]، فجعل سبحانه وتعالى اتخاذ الكافرين أولياء من أخص خصائص النفاق وأهله .

هـــ- قوله تعالى : ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

فأخبر سبحانه أنه لا يوجد مؤمن يواد كافرا، فمن واد كافراً فليس بمؤمن، وإذا كان الله قد نفي الإيمان عمن يواد أباه وأخاه وعشيرته، إذا كانوا كفارا، فمن واد الكفار الأبعدين أولى بأن لا يكون مؤمنا .

و- قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۞ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد : ٢٥ – ٢٨] .

فأخبر تعالى أن سبب ما جرى عليهم من الردة والكفر هو قولهم للذين كفروا : سنطيعكم في بعض الأمر، فلم ينفعهم ما علموه من الهدى والحق مع ما قالوه وما وعدوه للذين يكرهون الإسلام .

ز- قوله تعالى : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ﴾ [النساء : ١٤٠] .

فذكر تعالى أنه نزل على المؤمنين في الكتاب أنهم إذا سمعوا آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، وأن من جلس مع الكافرين بآيات الله المستهزئين بها في حال كفرهم واستهزائهم فهو مثلهم . هذا وهم في بلد واحد في أول الإسلام، فكيف بمن كان في سعة الإسلام وعزه وبلاده، فدعا الكافرين بالله المستهزئين بها إلى بلاده واتخذهم أولياء وأصحابا وجلساء ومستشارين، وسمع كفرهم واستهزاءهم وأقرهم، وطرد علماء المسلمين وأبعدهم !! فهذا أسلوب من أساليب الرضى

بالكفر والكفار يبعد صاحبه عن الإيمان، ويدخله في الكفر والعياذ بالله، لأن السكوت في مجالس الكفر وما يكون فيها دليل كاف على الموافقة .

فيجب على المؤمن أن يحذر ذلك كما يحذر الكفر الصريح، فيلزمه مفارقة هذه المجالس، حتى ينجو من عذاب الله، ولا يمنعه من ذلك خوف على مال أو مركز، أو أي عرض من أعراض هذه الدنيا، فإن الله سبحانه أحق أن يخشاه .

معنى الموالاة للكفار :

تلك بعض النصوص التي يدل كل واحد منها على ردة من يوالون الكفار والمشركين فكيف إذا اجتمعت، وجمعت معها غيرها مما لم يذكر، وعرفت تناقض موالاة الكفار مع الشهادتين .

وليس لقائل أن يقول : أن معنى الموالاة غير محدود، إذ يدخل فيه أمور كثيرة قاصدا بذلك أننا لا نستطيع أن نتخذه معيارا في معرفة من يكفر ومن لا يكفر، لأن الله سبحانه وتعالى لا ينهي عن شيء غير محدد وغير معروف، ولا يحكم بردة من دخل في أمر غير واضح وغير متميز، وإلا لكان أمره ونهيه في هذا الموضوع عبثا لا يمكن تطبيقه، وهذا قول لا يقول مؤمن بالله وصفاته .

فإن قيل : فما معنى الموالاة ؟ .

فاعلم أن هذا اللفظ مشتق من الولاء، وهو الدنو والتقرب . والولاية ضد العداوة، والولي عكس العدو، المؤمنون أولياء الرحمن، والكافرون أولياء الطاغوت والشيطان، لقرب الفريق الأول من الله بطاعته وعبادته، وقرب الفريق الثاني من الشيطان بطاعة أمره، وبعدهم عن الله بعصيانه ومخالفته .

ومن هنا يتبين أن موالاة الكفار تعني التقرب إليهم، وإظهار الود لهم، بالأقوال والأفعال والنوايا . وقد أشارت النصوص إلى كثير من هذه الأمور التي تدخل الإنسان في الولاء للكفار، من ذلك :

اتباع أهوائهم وقد نهى الله عن اتباعها قال تعالى : ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

وطاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٩]، وقال سبحانه :

﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [الكهف : ٢٨]، وقال أيضاً : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام : ١٢١] .

والركون إليهم، قال تعالى : ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود : ١١٣] .

والركون : هو الميل والرضى بما يعرضونه على المسلم .

ومداهنتهم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين . قال عز وجل : ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم : ٩] .

وإظهار الود لهم، قال تعالى : ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

ويدخل في جملة ما تقدم إكرام الكفار وتقريبهم، وخاصة من الحكام، ومشاورتهم في الأمور الهامة، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، ومعاونتهم على ظلمهم ونصرتهم والتشبه بأعمالهم وعاداتهم وتقاليدهم، وأخذ الأمة بوسائل الترغيب والترهيب والإعلام وغيرها للتشبه بهم وتقليدهم في شئون الحياة، واستعارة قوانينهم ومناهجهم في حكم الأمة وتربية أبنائها .

ويدخل فيه معاونتهم، والتآمر والتخطيط معهم، وتنفيذ مخططاتهم، والدخول في تنظيماتهم وأحلافهم، والتجسس من أجلهم، ونقل عورات المسلمين وأسرار الأمة إليهم والقتال في صفهم .

ويدخل فيه استئمانهم، وقد خونهم الله عز وجل، وتوليتهم المراكز الهامة، وتنصيبهم في أهم الوظائف وأخطرهم، وخاصة في الجيش والمرافق الهامة .

كما يدخل فيه تحسين أفكارهم ومناهجهم وقيمهم وتصوراتهم، والدعوة إليها، وتفضي علمائهم على علماء المسلمين .

فمن اجتمعت عنده هذه الأمور، أو قدر منها، وكان ذلك له خلقا وعادة، فقد أقام الدليل على أنه راض بكفر الكافرين، فيكون مثلهم، بل منهم، ولا ينجيه من الكفر إلا إيمان جديد، وإقلاع عن موالاة الكفار .

ما يقبل وما لا يقبل من الأعذار في هذا المقام :

هذا وقد يعتذر بعض الموالين بأنهم يخافون على ملكهم وأموالهم ومراكزهم وغير ذلك من المخاوف التي لا تصح، ولا يعتبرها الله سبحانه، ولا يعذرهم من أجلها، وجميعها من تزيين الشيطان وتسويله، وحب الدنيا والطمع في زينتها .

ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يقبل عذرا لأحد في إظهار موالاته للكفار وطاعتهم وموافقتهم على دينهم، إلا عذرا واحدا، هو الإكراه، حيث قال عز وجل : ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل : ١٠٦، ١٠٧] . وقال أيضاً : ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران : ٢٨] .

على أن الإكراه لا ينفع أحدا فيما يتعلق بالرضى القلبي والميل الباطني إلى الكفار فهذا غير مأذون فيه على أية حال، لقوله تعالى : ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾، ولأن الإكراه، وهو النطق باللسان وفعل الجوارح . فمن والى الكفار بقلبه وميله إليهم فهو كافر على كل حال . فإن أظهر موالاته بلسانه أو بفعله عومل في الدنيا بكفره، وفي الآخرة بخلد في النار وإن لم يظهرها بفعل ولا قول وعمل بالإسلام ظاهرا عصم ماله ودمه، وهو منافق في الدرك الأسفل من النار .

حدود الإكراه المعتبر :

ولكن ما حدود الإكراه المقصود في هذا المقام ؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : (تأملت المذاهب فوجدت الإكراه يختلف باختلاف المكره، فليس المعتبر في كلمات الكفر بالإكراه المعتبر في الهبة ونحوها، فإن أحمد قد نص في غير موضع على أن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب أو قيد، ولا يكون الكلام إكراها . وقد نص على أن المرأة لو وهبت زوجها صداقها بمسكنه فلها أن ترجع على أنها لا تهب له إلا إذا خافت أن يطلقها أو يسيء عشرتها، فجعل خوف الطلاق أو سوء العشرة إكراها، ومثل هذا لا يكون إكراها على الكفر، فإن الأسير إذا خشي الكفار أن لا يزوجوه أو أن يحولوا بينه وبين امرأته لم يبح له التكلم بكلمة الكفر) (١) .

وهكذا يرى الإمام أحمد بن حنبل، ويوافقه ابن تيمية رحمهما الله تعالى، أن الإكراه في مقام التظاهر بالكفر، سواء كان نطقا بكلامه أو موالاة للكفار لا يعتبر إلا إذا وصل إلى حد التعذيب من ضرب أو قتل ونحو ذلك، وأما ما دونه من طمع في رياسة أو

(١) انظر مجموعة التوحيد ص٢٩٧ .

في مركز يعين الكفار على توليه أو بقائه، أو خوف على مال أو عيال أو وطن غير ذلك فإنه لا ينفع ولا يقبل منه .

وهذا الذي ذهبا إليه يدل عليه النصوص السابقة التي نهت عن موالاة الكفار واعتبرته سببا من أسباب الكفر والردة، ففي الآية التالية للآية التي عذر فيها الله سبحانه وتعالى المكره فيما يتلفظ به كلام الكفر، قرر سبحانه أن حب الدنيا والعمل من أجل حظوظها لا ينفع صاحبه، ولا يشفع له عند الله تعالى إن صدر عنه ما يستلزم الكفر، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل : ١٠٧] .

وفي آية أخرى توعد سبحانه وتعالى من اتخذ أباه أو أخاه وليا من دون الله فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة : ٢٣] .

فانظر كيف نفى أن تكون صلة القرابة، مهما كانت قوية، عذرا في إظهار الموالاة للكفار .

فإن لم يكن حب الأب والأخ والولد عذرا في ولاية الكفار، فكيف يمكن أن يكون كذلك حب الزعامة والأموال وزينة الحياة الدنيا، بل إن الله عز وجل رفض الاعتذار بثمانية أعذار كثيراً ما يعتذر الناس بها في ترك ما يحب الله ورسوله وهو قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة : ٢٤] .

ولا شك أن موالاة الكفار فيها إظهار لحبهم ومودتهم، وتفضيلهم على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، ومثله هذا قوله تعالى : ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة : ٢٢] . فلا عذر لإنسان في موالاة الكفار خوفا على الأموال والأبناء والأزواج والعشائر ونحو ذلك مما يعتذر به كثير من الناس .

وانظر كيف رفض الباري عز وجل قبول عذر أناس كانوا يتولون اليهود والنصارى عندما قالوا : نخشى أن تصيبنا دائرة، فقال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي

﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة : ٥١ – ٥٢] .

وهذه هي حال كثير من المرتدين في هذه الفتنة في هذه الأيام، وما أشبه أعذار كفار الأمس بأعذار كفار اليوم ! فتجدهم يعتذرون بنفس العذر، ويخافون الدائرة التي خاف منها أولئك القوم، فيقولون لك، كيف لنا أن لا نوالي فلانا أو تلك الطائفة وكيف لنا أن لا نظهر المودة لها ونجاملها، ولو كان على حساب الدين والعقيدة، وهي تتمتع بالعطف والحماية من دول عظمى لا نقدر على الوقوف أمامها، أو يقولون لك : كيف نتجاهل رغبة تلك الدولة العظيمة، ولو كانت رغبتها قتل المسلمين وتشريدهم وإفساد أخلاقهم، وإبعادهم عن دينهم، والتنازل عن أراضيهم، كيف لنا ذلك ؟ .

تعلم أنه لا يستطيع أمثالنا الثبات لحظة في مكانه الذي هو فيه إن لم ننفذ لها رغباقا، إننا لا نستطيع التضحية بمراكزنا ومكاسبنا !! وهذا لعمر الحق هو الخوف الذي لا يجوز أن يكون إلا لله عز وجل، وقد علمت أنه يكفر من يجعله لغير الله، فهؤلاء قد كفروا مرتين: لموالتهم للكفار، ولعبادقم إياهم بخشيتهم لهم خشية لا تصح إلا لله عز وجل .

فهذه النصوص وغيرها تدلك على أن الله عز وجل لا يعذر أحدا في موالاة الكفار إلا من كان حاله كحال عمار بن ياسر، رضي الله عن آل ياسر، الذي نزل في حقه تفضل الله تعالى على العباد بالإعذار بالإكراه، وهو قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ .

وهذه يقتضي أن يكون المكره تحت سلطان الكفر، ويقدرون عليه، وتكون الرخصة عندئذ في وقت الإكراه، ولا يجوز اللجوء إليه بعد زوال التعذيب، فإن عادوا إلى تعذيبه كان له العودة إلى الرخصة، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال لعمار بعد ما عرف حاله (فإن عادوا فعد) .

قال بن قدامة : (فإذا ثبت – أي المكره – أنه لم يكفر، فمتى زال عنه الإكراه، أمر بإظهار إسلامه، فإن أظهره فهو باق على إسلامه، وإن أظهر الكفر حكم أنه كفر من حين نطق به، لأننا تبينا بذلك أنه كان منشرح الصدر بالكفر من حين نطق به مختارا له) (١) على أن الأفضل لمن أكره على كلمة الكفر، أو على موالاة الكفار والموافقة على دينهم أن يصبر ولا يمتثل لهم، حتى ولو أتى ذلك على نفسه لما روى خباب عن رسول الله

(١) المغني : ج٩ ص٢٤ .

ﷺ أنه قال : " قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه " (١) .

ويشهد لهذا أيضا ما ورد في الصحيح من قصة أصحاب الأخدود وما فعلوه بالمؤمنين، فصبر المؤمنون على التحريق في سبيل الله، و لم يصدهم الأخدود المؤجج بالنيران عن دينهم القويم، فثبتوا عليه وضحوا بأنفسهم في سبيله وهو تفسير قوله تعالى : ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۞ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج : ٤ – ٧] (٢) .

وقال الإمام القرطبي رحمه الله أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر فاختار القتل أنه أعظم أجرا عند الله ممن اختار الرخصة (٣) .

بعض مظاهر عدم الرضى بالإسلام :

ونذكر لك أيضا مظهرين من مظاهر كره الإسلام التي تؤول بصاحبها إلى الردة والكفر وإن شهد الشهادتين وسمى نفسه مسلما، وهما :

الأول : الاستهزاء بشيء معلوم من دين الإسلام، ويدخل في ذلك الاستهزاء بالله ورسوله وكتابه أو بالمؤمنين بسبب إيمانهم ونحو ذلك، وأصل هذا قوله تعالى : ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۞ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة : ٦٥ – ٦٦] .

ومناسبة نزول هذه الآيات أنه قال رجل في غزوة تبوك : ما رأينا مثل قرّائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء – يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء – فقال عوف بن مالك : كذبت ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال : يا رسول إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق، قال ابن عمر : كأني أنظر إليه متعلقا

(١) رواه البخاري – انظر رياض الصالحين ص٣٢ .

(٢) وقصة أصحاب الأخدود . أخرجها بتمامها مسلم في صحيحه انظر هذه القصة بكاملها في رياض الصالحين ص٢٧ وما بعدها .

(٣) تفسير القرطبي : ج١ ص١٨٨ .

بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله ﷺ : ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون﴾ ما يلتفت إليه، وما يزيد عليه (١) .

وصور الاستهزاء كثيرة جدا لا تدخل تحت حصر، ويجمعها أنها جميعا تدل على الاستخفاف بالدين وعدم الرضى عنه أو عن شيء منه، وقد يكون كلاميا، وقد يكون فعليا بالحركة والإشارة كالرف بالعين، وإخراج اللسان، ومد الشفة والغمزة باليد، عند تلاوة كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أو عند ذكر عقيدة الإسلام أو شيء من مبادئه المعلومة بالضرورة ونحو ذلك .

الثاني : ظهور الكراهية والغضب عند ذكر الله أو رسوله أو تلاوة كتابه، أو ذكر شيء من أمور الدين المعروفة، أو الدعوة إليه، فقد قال عز وجل : ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج : ٧٢] . وقال أيضاً : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد : ٩] .

نصوص بعض العلماء فيما يكون سببا للردة :

ومن المفيد في ختام هذا البحث أن نذكر لك بعض النصوص لبعض العلماء مما نصوا عليه من الأفعال والأقوال والاعتقادات التي تؤول بصاحبها إلى الخروج من دين الإسلام، ليكون الأخ القارئ على بينة منها، فلا يقع فيها، وليحذر إخوانه منها ومن الوقوع فيها، فإن معظم ما ذكروه متفق عليه، وما اختلف فيه لا يقل عن أن يكون كبيرة من الكبائر :

١- ففي كتاب الزواجر عن ارتكاب الكبائر قال الإمام ابن حجر الهيثمي : (فمن أنواع الكفر والشرك أن يعزم الإنسان عليه في زمن بعيد أو قريب، أو يعلقه باللسان أو القلب على شيء، ولو كان محالا عقليا فيما يظهر . فيكفر حالا، أو يعتقد ما يوجبه أو يفعل أو يتلفظ بما يدل عليه، سواء أصدر عن اعتقاد أو عناد أو استهزاء، كأن يعتقد قدم العالم، أو نفي ما هو ثابت لله بالإجماع المعلوم من الدين بالضرورة كإنكار علم الله أو قدرته، أو كونه يعلم الجزئيات، أو إثبات ما هو منفي عنه سبحانه كاللون) .

ثم شرع في بيان تفصيلات كثيرة لهذه القاعدة التي ذكرها فقال : (وفي معنى ذلك كل من فعل فعلا أجمع المسلمون على أنه لا يصدر إلا من كافر وإن كان مصرحا

(١) تفسير ابن كثير : ج٢ ص٣٦٧ .

بالإسلام، كالمشي إلى الكنائس مع أهلها بزيهم من الزنانير وغيرها، أو يلقي ورقة فيها شيء من القرآن، أو فيها اسم الله تعالى في نجاسة، أو يشك في نبوة نبي أجمع عليها، أو إنزال كتاب كذلك كالتوراة أو الإنجيل أو زبور داود أو صحف إبراهيم ﷺ أو في آية من القرآن مجمع عليها، أو في تكفير كل قائل قولا يتوصل به إلى تضليل الأمة أو تكفير الصحابة أو في مكة أو الكعبة أو المسجد الحرام أو في صفة الحاج، أو هيئته المعروفة، وكذا الصوم والصلاة أو استحل محرما كذلك، كالصلاة بغير وضوء أو استحل إيذاء مسلم أو كافر ذمي بلا مسوغ شرعي بالنسبة لاعتقاده، أو حرم حلال كالبيع والنكاح أو يقول عن نبينا ﷺ : كان أسود أو توفي قبل أن يلتحي، أو ليس بقرشي أو عربي أو أنسي، لأن وصفه بغير صفته تكذيب له . ويؤخذ منه أن كل صفة أجمعوا على ثبوتها له يكون إنكارها كفرا، كما لوجوز بعثة نبي بعده . وقال : لا أدري أهو الذي بعث بمكة ومات بالمدينة أو غيره، أو قال أن النبوة مكتسبة، أو أن رتبتها يوصل إليها بصفاء القلب، أو يقول : الولي أفضل من النبي وأنه يوحى إليه وإن لم يدع النبوة، أو يدخل الجنة قبل موته، أو يعيب نبينا محمداً ﷺ ومثله غيره من الأنبياء بل والملائكة . أو يلعنه أو يسبه، أو يستخف ويستهزئ به، أو يلحق به نقصا في نفسه أو نسبه أو دينه او فعله أو يعرض بذلك، أو يسبه بشيء عن طريق الازراء أو التصغير لشأنه، أو الغض منه، أو تمنى له معرة، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم، أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزور، أو عَيَّر بشيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه، أو غمضه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه، فيكفر بواحد مما ذكر إجماعا، فيقتل ولا تقبل توبته عند أكثر العلماء وقد قتل خالد بن الوليد " من قال له : عند صاحبكم، وعد هذه الكلمة تنقيصا له ﷺ).

ثم قال ابن حجر : (أو يرضي بالكفر ولو ضمنا كأن يشير على كافر بأن لا يسلم وإن لم يستشره... أو سؤال الكفر لغيره لأنه رضي به، أو يقول لمسلم : يا كافر بلا تأويل لأنه سمى الإسلام كفرا، أو يسخر باسم الله تعالى أو نبيه بأن يصغره، أو يسخر بأمر الله أو نبيه أو ووعده أو وعيده كأن يقول : لو أمرني بكذا لم أفعله، أو لو جعل القبلة هنا ما صليت إليها، أو لو أعطاني الجنة ما دخلتها استخفافا أو عنادا، أو يقول لو أخذني بترك الصلاة مع ما في من الشدة والمرض ظلمني . أو قال ظالم لمظلومه القائل "هذا الظلم بتقدير الله" أنا أفعل بغير تقدير الله . أو قال : لو شهد عندي ملك أو نبي ما صدقته، أو لو كان فلانا نبيا ما آمنت به، أو قال : إن كان ما قاله النبي صدقا نجونا... أو قيل له : قلم أظافرك فإنه سنة فقال لا أفعل وإن كان سنة استهزاء، أو قال : لا حول ولا قوة إلا بالله لا تغني من جوع، ومثلها في ذلك سائر الأذكار كما هو ظاهر، أو قال المؤذن يكذب، أو شبه صوته بناقوس الكفر، أو استخف بالآذان، أو سمى الله على محرم

استهزاء، أو قال : لا أخاف القيامة استهزاء، أو قال عن الله : أنه لا يتبع السارق ناسبا العجز إليه... أو نسب الله تعالى إلى جور في التحريم، أو لبس زي كافر ميلا إلى دينه أو قال : اليهود خير من المسلمين.. أو قيل له : ما الإيمان، فقال : لا أدري استخفافا أو أنكر صحبة أبي بكر أو قذف عائشة رضي الله عنها، لأنه مكذب للقرآن بخلاف غيرهما أو قال : أنا الله ولو مازحا، أو قال لا أدري حقه جحدا للواجبات ... أو قال استخفافا : شبعت من القرآن أو الصلاة أو الذكر أو نحو ذلك، أو قال : أي شيء المحشر أو جهنم ؟ أو قال : لعنة الله على كل عالم إذا قصد الاستغراق لشموله الأنبياء والملائكة أو قال : أي شيء هذا الشرع وقصد الاستخفاف .

أو قال : إذا ظهرت الربوبية زالت العبودية وعني بذلك رفع الأحكام، أو أنه فني من صفاته الناسوتية إلى اللاهوتية، أو أنه يرى الله عيانا في الدنيا أو يكلمه شفاها، أو أنه يحل في صورة حسنة، أو أنه أسقط عنه التكليف، أو قال : العبد يصل إلى الله تعالى من غير طريق العبودية أو قال : الروح من نور الله فإذا اتصل النور بالنور اتحد) (١) .

٢- وأنقل هنا كلاما لابن تيمية، رحمه الله تعالى، حول معنى قوله تعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة : ٤٤]، حيث قال : (ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر، فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم، بل كثير منهم من المنتسبين إلى الإسلام، يحكمون بعاداتهم التي لم يترلها الله، كسواليف البادية . ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة، وهذا هو الكفر، فإن كثيرا من الناس أسلموا، ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التي يأمر بها المطاعون، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله، فلم يلتزموا ذلك، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار) (٢) .

وفي نفس الموضوع يقول شارح العقيدة الطحاوية : (وهنا أمر يجب أن يتفطن له وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة، وذلك بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب، وأنه مخير فيه أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله، فهذا كفر أكبر) (٣) .

---

(١) عن كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر المكي ج١ ص٢٨ – ٣٠، وانظر أيضاً كلاماً قريباً من هذا في مغني المحتاج ج٤ ص١٣٥، ١٣٦، حاشية الباجوري ج٢ ص٢٥٧ .

(٢) من منهاج السنة النبوية – انظر : مجموعة التوحيد ص١٩٣ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٦٣، ٣٦٤ .

ويقول الحافظ ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة : ٥٠] : (ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي صنعها الرجال، بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم "الياسق"، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فمن فعل ذلك منهم، فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير) (١) .

ويقول الشيخ أحمد شاكر تعليقا على كلام ابن كثير السابق : (أقول : أفيجوز – مع هذا – في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربا الوثنية الملحدة ؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة، يغيرونه ويبدلونه كما يشاءون، لا يبالي واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها ؟ .

إن المسلمين لم يبلوا بهذا قط – فيما نعلم من تاريخهم – إلا في ذلك العهد، عهد التتار، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام . ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له، بل غلب الإسلام التتار، ثم مزجهم، فأدخلهم في شرعته، وزال أثر ما صنعوا، بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم . وبما أن الحكم السيء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة، ولم يتعلموه، ولم يعلموه أبناءهم، فما أسرع ما زال أثره .

أفرأيتم هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير – في القرن الثامن – لذلك القانون الوضعي، الذي صنعه عدو الإسلام جنكزخان ؟ ألستم ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر، في القرن الرابع عشر ؟ إلا في فرق واحد، أشرنا إليه آنفا : أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكام، أتى عليها الزمن سريعا، فاندمجت في الأمة الإسلامية وزال أثر ما صنعت .

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالا، أشد ظلما وظلاما منهم، لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تندمج في هذه القوانين المخالفة للشريعة، والتي هي أشبه شيء بذاك "الياسق" الذي اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر . هذه القوانين التي يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسلمين، ويفخرون بذلك آباء وأبناء، ثم يجعلون مرد

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٦٧ .

أمرهم إلى معتنقي هذا "الياسق العصري" ويحقرون من يخالفهم في ذلك، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم "رجعيا" و "جامدا" إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة .

بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقي في الحكم من التشريع الإسلامي، يريدون تحويله إلى "ياسقهم" الجديد بالهوينا واللين تارة، وبالمكر والخديعة تارة، وبما ملكت أيديهم من السلطات تارة، ويصرحون، ولا يستحيون، بأنهم يعملون على فصل الدولة من الدين ! أفيجوز إذن – مع هذا – لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد أعني التشريع الجديد ؟ ..

أو يجوز لرجل مسلم أن يلي القضاء في ظل هذا "الياسق العصري" وأن يعمل به ويعرض عن شريعته البينة ؟ ما أظن أن رجلا مسلما يعرف دينه، ويؤمن به جملة وتفصيلا، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله كتابا محكما لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذي جاء به واجبة قطعية الوجوب في كل حال – ما أظنه يستطيع إلا أن يجزم غير متردد ولا متأول، بأن ولاية القضاء في هذه الحال باطلة بطلانا أصليا، لا يلحقه التصحيح ولا الإجازة ؟

إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هي كفر بواح، لا خفاء فيه ولا مداورة، ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإسلام – كائنا من كان – في العمل بها، أو الخضوع لها أو إقرارها، فليحذر امرؤ لنفسه، وكل امرئ حسب نفسه) (١) .

٣- ويقول الشيخ أحمد شاكر أيضا فيمن ينكرون حد السرقة : (هذا حكم الله في السارق والسارقة، قاطع صريح اللفظ والمعنى، لا يحتمل أي شك في الثبوت ولا في الدلالة . وهذا حكم رسول الله تنفيذا لحكم الله وطاعة أمره، في الرجال والنساء، قطع اليد، لا شك فيه، حتى ليقول ﷺ " لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " .

فانظروا إلى ما فعل بنا أعداؤنا المبشرون المستعمرون ؟ لعبوا بديننا، وضربوا علينا قوانين وثنية ملعونة، نسخوا بها حكم الله وحكم رسوله، ثم ربوا فينا ناسا ينتسبون إلينا، أشربوا في قلوبهم بغض هذا الحكم، ووضعوا عى ألسنتهم كلمة الكفر : إن هذا حكم قاس لا يناسب هذا العصر الماجن، عصر المدينة المتهتكة . وجعلوا هذا الحكم موضوع سخريتهم وتندرهم فكان عن هذا أن امتلأت السجون – في بلادنا وحدها – بمئات الألوف من اللصوص، بما وضعوا في القوانين من عقوبات للسرقة، ليست برادعة، ولن تكون أبداً رادعة، ولن تكون أبداً علاجاً لهذا الداء المستشري .

---

(١) عمدة التفسير – اختبار أحمد محمد شاكر سنة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٧ م ج٤ ص١٧١، ١٧٢ .

ثم أدخلوا في عقول الطبقة المثقفة، وخاصة القائمين على هذه القوانين الوثنية ما يسمونه "علم النفس"، وهو ليس بعلم ولا شبيه به، بل هو أهواء متناقضة متباينة، لكل إمام من أئمة الكفر في هذا العلم رأي ينقض رأي مخالفه، ثم جاءوا في التطبيق يلتمسون الأعذار من علم النفس لكل لص بحبسه . ثم زاد الأمر شرا أن يكتب اللصوص أنفسهم كلاما يلتمسون به الأعذار لجرمهم، وقام المدافعون عنهم المقامات التي توردهم النار : يعلمون أن الجريمة ثابتة، فلا يحاولون إنكارها، بل يحاولون التهوين من شأنها، بدراسة نفسية المجرم وظروفه !! .

ولقد جادلت منهم رجالا كثيرا من أساطينهم، فليس عندهم إلا أن حكم القرآن في هذا لا يناسب العصر !! وأن المجرم إن هو إلاّ مريض يجب علاجه لا عقابه، ثم ينسون قول الله سبحانه في هذا الحكم ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ﴾ [المائدة : ٣٨] . هذه العقوبة للتنكيل بالسارقين، نصا قاطعاً صريحاً، فأين يذهب هؤلاء الناس ؟

المسألة عندنا – نحن المسلمون – هي من صميم العقيدة، ومن صميم الإيمان، فهؤلاء المنتسبون إلى الإسلام، المنكرون حد القطع أو الراغبون عنه، سنسألهم : أتؤمنون بالله، وبأنه خلق هذا الخلق ؟ فسيقولون : نعم . أفتؤمنون بأنه يعلم ما كان وما يكون، وبأنه أعلم بخلقه من أنفسهم، وبما يصلحهم وبما يضرهم ؟ فسيقولون نعم . أفتؤمنون بأنه أرسل رسوله محمدا بالهدى ودين الحق، وأنزل عليه هذا القرآن من لدنه هدى للناس وإصلاحا لهم في دينهم ودنياهم ؟ فسيقولون : نعم . أفتؤمنون بأن هذه الآية بعينها ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة : ٣٨] من القرآن ؟ فسيقولون : نعم . إذن فأنى تصرفون ؟ وعلى أي شرع تقومون ؟ أما من أجاب – ممن ينتسب للإسلام – على أي سؤال من هذه السؤالات بأن : لا، فقد فرغنا منه وعرفنا مصيره . وقد أيقن كل مسلم من عالم أو جاهل، مثقف أو أمي، أن من يقول في شيء من هذا : لا، فقد خرج من الإسلام وتردى في حمأة الردة . وأما من عدا المسلمين، ومن عدا المنتسبين للإسلام، فلن نجادلهم في هذا، ولن نسايرهم في الحديث عنه، إذ لم يؤمنوا بمثل ما آمنا، ولن يرضوا عنا أبدا إلا أن نقول مثل قولهم وعياذا بالله من ذلك .

ولو عقل هؤلاء الناس – الذين ينتسبون للإسلام – لعلموا أن بضعة أيد من أيدي السارقين، لو قطعت كل عام، لنجت البلاد من سبة اللصوص، ولما وقع كل عام إلا بضع سرقات، كالشيء النادر، ولخلت السجون من مئات الألوف التي تجعل السجون مدارس حقيقية للتفنن في الجرائم . أو عقلوا لفعلوا . ولكنهم يصرون على باطلهم، ليرضى عنهم سادتهم ومعلموهم وهيهات) (١) .

---

(١) عدة التفسير ج٤ ص١٤٦، ١٤٧ .

٤- ومن فتاوى العلماء المسلمين حول بعض الطوائف المرتدة عن دين الإسلام أنقل لك جواب ابن تيمية رحمه الله تعالى على سؤال عن طائفة من هذه الطوائف تسمى "النصيرية" فقال : (الحمد لله رب العالمين : هؤلاء القوم المسلمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى، بل وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والإفرنج وغيرهم، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهي . ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المرسلين قبل محمد ﷺ ولا بملة من الملل السالفة، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين يتأولونه على أمور يفترونها، يدعون أنها علم الباطن وليس لهم حد حدود فيما يدعونه من الإلحاد في أسماء الله تعالى وآياته وتحريف كلام الله تعالى ورسوله عن مواضعه...) إلى أن قال : (ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم وهم دائما مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين . ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم أعيادهم إذا استولى والعياذ بالله تعالى — النصارى على ثغور المسلمين ... فهؤلاء المحادون لله ورسوله كثروا حينئذ بالسواحل وغيرها فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره، فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك . ثم لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين في سبيل الله تعالى كنور الدين الشهيد وصلاح الدين، وأتباعهما وفتحوا السواحل من النصارى، وومن كان بها منهم ، وفتحوا أيضا أرض مصر . فإنهم كانوا مستولين عليها نحو مائتي سنة . واتفقوا هم والنصارى، فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد ...

ثم إن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم ...

ولهم ألقاب معروفة عند المسلمين، تارة يسمون "الملاحدة" وتارة يسمون "القرامطة" وتارة يسمون "الباطنية" وتارة يسمون "الإسماعيلية" وتارة يسمون "الخرمية" وتارة يسمون "المحمرة" وهذه الأسماء منها ما يعمهم، ومنا ما يخص بعض أصنافهم ... ولا ريب أن جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، فإن جهاد هؤلاء من جنس جهاد الكفار من أهل الكتاب ... وأيضا فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك ... ويجب على كل مسلم أن يقوم في ذلك بحسب ما يقدر عليه من الواجب فلا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه عن أخبارهم، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم، ولا لهم، ولا يحل لأحد السكوت عن القيامة عليهم بما أمر الله به

ورسوله ... والمعاون على كف شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى) (١) .

الاحتياط في تكفير المعينين :

يقول صاحب شرح العقيدة الطحاوية : (إن الأقوال الباطلة المبتدعة المحرفة المتضمنة نفي ما أثبته الرسول، أو إثبات ما نفاه، أو الأمر بما نهى عنه، أو النهي عما أمر به، يقال فيها الحق، ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص، ويبين أنها كفر، ويقال : من قالها فهو كافر ونحو ذلك .. وإنما الشخص المعين إذا قيل : هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر ؟ فهذا لا نشهد عليه إلا بأمر تجوز معه الشهادة، فإنه من أعظم البغي أن يشهد على معين أن الله لا يغفر له ولا يرحمه، بل يخلده في النار، فإن هذا حكم الكافر بعد الموت (٢) . ولأن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهدا مخطئا مغفورا، ويمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص، ويمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله، كما غفر للذي قال "إذا مت فاسحقوني ثم أذروني"، ثم غفر الله له لخشيته (٣) .

لكن هذا التوقف في أمرالآخرة لا يمنعنا أن نعاقبه في الدنيا، لمنع بدعته، وأن نستتيبه، فإن تاب وإلا قتلناه . ثم إذا كان القول في نفسه كفرا : قيل إنه كفر والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع ...) (٤) .

يتضح لك من هذا الكلام أنه ينبغي الاحتياط في تكفير الأشخاص المعينين.

وهنا أمور هامة ينبغي أخذها بعين الاعتبار عند الكلام عن نواقض الإسلام :

الأول : أن هنالك أمورا كثيرة تتناقض مع الشهادتين، إما لمنافاتها للإيمان بالله وأما لمناقضتها للإيمان برسول الله ﷺ وما جاء به، فيجب على كل من يعلمها ويعلم ما يدل عليها من النصوص أن ينبه عليها، ويحذر منها، ويفصل أنواعها، وضوابطها بقدر ما أوتي من العلم، ويبين أدلتها من القرآن والسنة، فهذا من بيان الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والفاعل ذلك له أجره عند ربه إن أخلص النية .

---

(١) أنظر مجموع فتاوى ابن تيمية — المجلد ٢٥ ص١٤٩ وما بعدها .

(٢) يقصد أن ذلك من اختصاص الله سبحانه وليس من اختصاص العباد .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٧ ص٧٢ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية : ص٣٥٧، ٢٥٨ .

الأمر الثاني : إن هذه الأمور المكفرة تختلف في قوة دلالتها على الكفر، فمنها ما يدل عليه بصريح العبارة لا بما يلزم به، ومنها ما يدل على الكفر بما يلزم منه لا بصريح العبارة، وهذا النوع الثاني منه ما يكون لازمه قريبا ومفهوما بأدنى تأمل، ومنه ما يكون أبعد من ذلك .

فمن وقع في النوع الأول أمكن الشهادة عليه بالكفر، ولا يعذر فيه أحد إلا المكره المعنى المتقدم، وفي حدود التلفظ باللسان دون الاعتقاد به، وكذلك ما يقترب منه من النوع الثاني، كمن يدعي أنه إله فإنه يستلزم الشريك لله تعالى، وإن لم ينف الألوهية عن الله تعالى . ومثله من يدعي إحدى خصائص الألوهية كحق التحليل والتحريم للعباد .

وكمن يقول بقدم العالم، فإنه يلزم منه القوم بأن الله لم يخلق، ولا تأويل له غير ذلك، فهو في قوته كالكفر الصريح، ولا يعذر قائله، وكمن يصدر عنه الرضا الصريح بالكفر كمن يقول لمن أنكر وجود الله : صدقت، أو أنك على حق، فهذا لا يقل في دلالته على الكفر من قول المنكر نفسه وقد يكون سبب القوة كثرة صدور أفعال الكفر وأقواله من شخص معين وإقامته عليها، ومن هذا إقامة الشخص على موالاة الكفار وكثرة حصول أفعالها منه، فإن من المستحيل عرفا قيام عذر لشخص يقيم طوال حياته أو معظمها على أفعال وأقوال تستلزم الكفر أو الرضى به .

ومن وقع فيما يؤدي إلى الكفر عن طريق النظر إلى ما يلزم منه، فهذا الذي ينبغي الاحتياط فيه عند تطبيقه على شخص معين، وتزداد الحاجة إلى الاحتياط كلما كان اللازم بعيدا عن الأمر الذي صدر من ذلك الشخص المعين .

وذلك بأن ينظر إلى الظروف والقرائن الظاهرة القوية الدلالة (١) .

وهذا الأمر لا يتأتى في الواقع لعامة الناس وإنما يقدر عليه من ملك وسائل الحكم والقضاء في الدولة الإسلامية .

ونضرب لك مثلا : لو أن شخصاً ألقى شيئا من القرآن في نجاسة فهذا العمل في حد ذاته وبغض النظر عن الفاعل أجمع الفقهاء على التكفير بسببه لأنه يلزم من هذا الفعل تحقير كلام الله والاستخفاف به، فلو رآه شخص آخر، فله أن يقول عن هذا العمل أنه كفر، ولكن لا يستطيع تكفير الشخص المعين الذي فعله حتى يعرف أمرين اثنين على الأقل : أن هذا الشخص يعرف أن ما ألقاه هو القرآن، ويعرف أن الملقى فيه هو النجاسة، فإذا علم ذلك، كأن أقر بذلك، كان الحكم بالكفر، ولكن قد يكون الشخص أميا لا يدري ما ألقاه، وقد يكون غير مبصر لا يدري ما ألقاه ولا يدري ما ألقى فيه وعندئذ تكون هذه قرينة ظاهرة على عدم إرادة التحقير، ويعذر ذلك الشخص المعين .

---

(١) أشار إلى هذا المعنى ابن حجر الهيثمي في كتابه الزواجر عن اقترف الكبائر ج١ ص٢٨ .

ومن هنا وجب الاحتياط في تكفير فلان أو فلان إلا أن يصدر منه الكفر الصريح الذي ليس له تأويل معقول سوى الكفر، مع وجوب التنبيه على جميع الأقوال والأعمال التي يلزم منها الكفر إذا تحققت شروط وانتفت موانع .

الأمر الثالث : أن هنالك حكمين يترتبان على كفر العبد : الأول دنيوي، وهو استحقاق المرتد في الدنيا جميع ما دلت عليه النصوص الشرعية من الأحكام التي يجب تنفيذها عليه في هذه الحياة الدنيا، والتي مبناها على ما يصدر عن الإنسان في الظاهر دون النظر إلى مكنونات القلب، وذلك كاستحقاق المرتد القتل إن لم يتب والتفريق بينه وبين زوجته وعدم حل ذبيحته ولا إنكاحه وغير ذلك . فهذا من اختصاص العباد في هذه الدنيا، ويطبقونه على الشخص المعين . وبعض هذه الأحكام يختص بالإمام كالإستتابة والقتل .

والحكم الثاني هو الحكم الأخروي : وهو استحقاق المرتد للخلود في النار، فهذا الحكم يختص بإصداره وتنفيذه على فلان وفلان وفلان، ممن يستحقونه، أحكم الحاكمين سبحانه وتعالى . ونحن لا نقدر عليه في الحياة الدنيا، ولا نعلمه بخصوص شخص معين، وليس من اختصاص العباد أصلا، فليس لأحد في هذه الدنيا أن يدعي أنه يعرف مقعد شخص معين في الجنة، أو في النار، اللهم إلا من أعلمهم الله بذلك من الرسل عليهم الصلاة والسلام، كمن بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة، وهم العشرة من الصحابة، الذين شهد لهم الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنة، وكمن أخبر عنهم الله في كتابه، أو شهد الرسول أنهم من أهل النار، كأبي لهب الذي فيه قرآن يدل على ذلك .

نعم لنا أن نحكم بصورة إجمالية، فنقول : من كفر بالله أو ارتد عن دينه خلد في النار، وحرمت عليه الجنة، وهذا هو الحد الذي يجب على المسلم أن يقف، عنده، وإلا كان باغيا ومعتديا، كما قال شارح العقيدة الطحاوية فيما تقدم . وكما قال الطحاوي رحمة الله " ولا نتزل أحدا منهم جنة ولا نارا " (١) .

---

(١) العقيدة الطحاوية مع شرحها، ص٤٢٦ .

خاتمة

في حكم أهل المعاصي

اقتراف المعاصي بمفرده لا يخرج من دين الله :

لقد تقدم قول الطحاوي رحمه الله تعالى : (ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ولا نقول : لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله) .

ويقول الإمام النووي رحمه الله تعالى : (واعلم أن مذهب أهل السنة وما عليه أهل الحق من السلف والخلف، أن من مات موحدا دخل الجنة قطعاً على كل حال، فإن كان سالما من المعاصي كالصغير والمجنون، والذي اتصل جنونه بالبلوغ والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي، إذا لم يحدث معصية بعد توبته والموفق الذي لم يبتل بمعصية أصلا، فكل هذا الصنف يدخلون الجنة ولا يدخلون النار أصلا لكنهم يردونها على الخلاف المعروف في الورود، والصحيح أن المراد به : المرور على الصرط، وهو منصوب على ظهر جهنم، أعاذنا الله منها، ومن سائر المكروه . وأما من كانت له معصية، ومات من غير توبة، فهو في مشيئة الله تعالى : فإن شاء عفا عنه، وأدخله الجنة أولاً، وجعله كالقسم الأول، وإن شاء عذبه القدر الذي يريده سبحانه وتعالى، ثم يدخله الجنة، فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد، ولو عمل من المعاصي ما عمل، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل . هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة . وقد تظاهرت أدلة أهل الكتاب والسنة وإجماع من يعتد به من الأمة على هذه القاعدة . وتواترت بذلك نصوص تحصل العلم القطعي . فإذا تقررت هذه القاعدة حمل عليها جميع ما ورد من أحاديث الباب (١)، وغيره . فإذا ورد حديث في ظاهره مخالفة وجب تأويله عليها، ليجمع بين نصوص الشرع) (٢) .

فمن مات على الإيمان، وتشهد مخلصا من قلبه بالشهادتين، فمآله دخول الجنة وعدم التخليد في النار مهما ارتكب من المعاصي، إذا لم يستحلها، أو ينكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة، أو يقع منه بعض ما يؤدي إلى نقض الشهادتين مما تقدم تفصيل

---

(١) وهو الباب الذي عنون له النووي بقوله (باب، الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا) .

(٢) انظر، شرح النووي على صحيح مسلم ج١ ص٢١٧، وذكر مثل هذا في نفس الجزء ص٢٢٠ . وانظر أيضا، كلاما مشابها لابن تيمية في الفرقان من مجموعة التوحيد ص٥٠٦، ٥٠٧ .

أنواعه، فمجرد فعل المعصية لا يدل على نقض الشهادتين ولا يكون سببا للتخليد في النار .

ويدل على هذا الأصل أحاديث كثيرة، صرحت بأن الجنة هي مصير كل من شهد الشهادتين، مخلصا مصدقا بقلبه لما يدلان عليه من التوحيد، وتصديق الرسول ﷺ في كل ما جاء به . وبعض هذه الأحاديث صرح بأن المعاصي والكبائر وحدها لا تمنع من دخول الجنة في المآل، وإن عذب المؤمن بسببها . ومن هذه الأحاديث :

١- عن عثمان " قال : قال رسول الله ﷺ : " من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة " (١) .

٢- وعن أبي هريرة " قال : قال رسول الله ﷺ : " أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة " (٢) .

٣- وعن عبادة بن الصامت " قال : قال رسول الله ﷺ : " من قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء " وفي رواية : " أدخله الجنة على ما كان من عمل " (٣) .

٤- وعن العباس بن عبد المطلب " أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا " (٤) .

٥- وقال رسول الله ﷺ : " يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى : أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان " (٥) .

٦- وعن المعرور بن سويد قال : سمعت أبا ذر يحدث عن النبي ﷺ أنه قال : " أتاني جبريل # فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، قلت : وإن زنى وإن سرق، قال : وإن زنى وإن سرق " (٦) .

---

(١) صحيح مسلم مع شرح النووي ج١ ص٢١٨ .

(٢) صحيح مسلم مع شرح النووي ج١ ص٢٢٤ .

(٣) صحيح مسلم مع شرح النووي ج١ ص٢٢٧، وأخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء .

(٤) صحيح مسلم مع شرح النووي ج٢ ص٢ .

(٥) متفق عليه واللفظ للبخاري – انظر صحيح البخاري ج١ ص٦١ وصحيح مسلم بشرح النووي ج٣ ص٣٦ .

(٦) متفق عليه واللفظ لمسلم ج٢ ص٩٤، وانظر صحيح البخاري في كتاب الجنائز .

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث : (وأما حكمه ﷺ على من مات مشركاً بدخول النار، ومن مات غير مشرك بدخول الجنة فقد أجمع عليه المسلمون فأما دخول المشرك النار فهو على عمومه، فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة . ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادا وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام، وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك، وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصراً عليها دخل الجنة أولا، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرا عليها فهو تحت المشيئة، فإن عفي عنه دخل أولا، وإلا عذب ثم أخرج من النار وخلد في الجنة ... وأما قوله ﷺ : " وإن زنى وإن سرق " فهو حجة لمذهب أهل السنة إن أصحاب الكبائر لا يقطع لهم بالنار وأنهم إن دخلوها أخرجوا منها، وختم لهم بالخلود في الجنة) (١) .

وأما الأحاديث التي أشار إليها النووي فيما تقدم بقوله : (فإذا ورد حديث في ظاهره مخالفة – أي للقاعدة السابقة – وجب تأويله عليها، ليجمع بين نصوص الشرع) فهي عدة أنواع : نوع منها ظاهره نفي الإيمان عمن ارتكب بعض المعاصي . ونوع فيه البراءة من النبي ﷺ لمن ارتكب بعض المعاصي، ونوع فيه تسمية لبعض المعاصي كفرا وشركا (٢) . ونذكر لك من هذه الأحاديث ما يلي :

١- قوله ﷺ : " سباب المسلم فسوق وقتاله كفر " (٣) .

٢- وقوله ﷺ : " لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض " (٤) .

٣- وقوله : " من حلف بغير الله فقد أشرك " (٥) .

٤- وقوله : " اثنتان من الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت " (١) .

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ج٢ ص٩٧ .

(٢) رسالة الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام مطبوعة مع رسائل أخرى ص٨٤ .

(٣) متفق عليه – انظر، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١ ص٩٦، وصحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص٥٤ .

(٤) متفق عليه – انظر، صحيح البخاري مع فتح الباري ج١ ص١٧٥ . وصحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص٥٥ .

(٥) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم في المستدرك عن ابن عمر . انظر، الفتح الرباني ج١٤ ص١٦٤ – ١٦٦ وصحيح الترمذي بشرح ابن العربي ج٣ ص١٨ والمستدرك ج١ ص١٨ .

٥- وقوله : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعد " (٢) .

٦- وقوله : " من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا " (٣) .

٧- وقوله عليه الصلاة والسلام : " ليس منا من ضرب الخدود أو شق الجيوب أو دعا بدعوى الجاهلية " (٤) .

ولهذه الأحاديث نظائر أخرى . ولم يحملها على ظاهرها إلا طائفة الخوارج الذين كفروا مرتكب الكبيرة .

وأما أهل السنة فموقفهم منها جميعها تأويلها بما يتفق مع القاعدة السابقة .

وهذا الموقف هو القدر المشترك بينهم، ولكن اختلفت مذاهبهم في التأويل : فمنهم من أولها بأن المقصود بها كفر النعمة، وليس الكفر المخرج من الدين، ومنهم من أولها بأنها محمولة على التغليظ والترهيب . ومنهم من أولها بأن المقصود استحلال ما ذكر فيها من المعاصي، وأبقي الكفر المنسوب إلى أهلها على حقيقته، فمن استحل شيئا مما ذكرته تلك الأحاديث كان كافرا مرتدا . ومنهم من نحى منحى آخر، فأول كل حديث تأويلا متفقا مع القاعدة السابقة المقررة عند أهل السنة (وهي أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار)، فلم يلتزم هؤلاء تأويلا عاما شاملا لجميع هذه الأحاديث . ومنهم من أولها بأن المقصود بها بيان الأعمال والأقوال التي هي من ثمرات الكفر لا من ثمرات الإيمان، وأن الإيمان لا يقتضيها، وإنما يقتضي البعد عنها (٥) .

يقول الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله تعالى بعد أن ذكر بعض التأويلات السابقة، وضعفها : (وإن الذي عندنا في هذا الباب كله أن المعاصي والذنوب لا تزيل إيمانا ولا توجب كفرا، ولكنها إنما تنفي من الإيمان حقيقته وإخلاصه الذي نعت الله به أهله، واشترطه عليهم في مواضع من كتابه، فقال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص٥٧ .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم – انظر صحيح البخاري في كتاب الأشربة، صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص٤٥ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص١٠٨ .

(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم – انظر صحيح البخاري في كتابه الجنائز، وصحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص١٠٩ .

(٥) انظر بالتفصيل بعض هذه التأويلات في رسالة الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام مع عدة رسائل ص٨٤ وما بعدها .

الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة : ١١١ – ١١٢] وقال : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۞ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون : ١ – ١١] . وقال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال : ٢ – ٤] . قال أبو عبيد : فهذه الآيات التي شرحت وأبانت شرائعه المفروضة على أهله، ونفت عنه المعاصي كلها، ثم فسرته السنة بالأحاديث التي فيها خلال الإيمان . فلما خالطت هذه المعاصي هذا الإيمان المنعوت بغيرها، قيل : ليس هذا من الشرائط التي أخذها الله على المؤمنين ولا الإمارات التي يعرف بها أهل الإيمان، فنفت عنهم حينئذ حقيقته (١)، ولم يزل عنهم اسمه، فإن قال قائل : كيف يجوز أن يقال : ليس بمؤمن، واسم الإيمان غير زائل عنه ؟ قيل : هذا كلام العرب المستفيض عندنا . غير المستنكر في إزالة العمل عن عامله إذا كان عمله على غير حقيقته، ألا ترى إنهم يقولون للصانع إذا كان ليس بمحكم لعمله : ما صنعت شيئا ولا عملت عملا . وإنما وقع معناها هنا على نفي التجويد، لا على الصنعة نفسها، فهو عندهم عامل بالاسم، وغير عامل في الإتقان حتى تكلموا به فيما هو أكثر من هذا، وذلك كرجل يعق أباه، ويبلغ منه الأذى، فيقال ما هو بولد، وهم يعلمون أنه ابن صلبه، ثم يقال مثله في الأخ والزوجة .. ثم قال أبو عبيد : وكذلك الأحاديث التي فيها البراءة، فهي مثل قوله : من فعل كذا وكذا فليس منا، لا نرى شيئا يكون معناه التبرؤ من رسول الله ﷺ ولا من ملته . إنما مذهبه عندنا أنه ليس من المطيعين لنا، ولا من المقتدين بنا، ولا من المحافظين على شرائعنا ...

وأما الآثار المرويات بذكر الكفر والشرك ووجوبهما بالمعاصي، فإن معناها عندنا ليست تثبت على أهلها كفرا ولا شركا يزيلان الإيمان عن صاحبه . إنما وجوهها أنها من الأخلاق والسنن التي عليها الكفار والمشركون) (٢) .

---

(١) يقصد إخلاصه وصفاءه، أي حقيقته التي لم تختلط بشيء من المعاصي .

(٢) انظر، رسالة الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص٨٩ وما بعدها .

والواقع أن هناك عدة أدلة وقرائن شرعية قاطعة تقتضي تأويل تلك الأخبار، منها :

أولا : تلك الأحاديث المستفيضة التي تدل على أن أهل الكبائر والمعاصي لا يدخلون في النار، وإنما يؤول أمرهم إلى الجنة، إما بعد عذاب مؤقت في النار، وإما بعد عفو ومغفرة من الله الغفور الرحيم . وقد قدمنا لك بعض هذه الأحاديث . وقد أشير في بعضها إلى كبائر هي أشد في حقيقتها من بعض الأعمال التي وقع تسميتها بالكفر في بعض الأحاديث . فإن الزنا والسرقة أشد من سباب المسلم ومن الطيرة، ومن النياحة على الميت التي سميت كفرا .

ثانيا : إن تلك الأمور التي وصفت بالكفر في بعض الأحاديث، لو كانت سببا للردة والخروج من دين الله عز وجل، لكان حكمها في الدنيا هو الحكم الذي أجمع عليه المسلمون، والذي نص عليه رسول الله ﷺ في قوله في الحديث الصحيح " من بدل دينه فاقتلوه " (١) . وكذلك وجدنا الله سبحانه وتعالى حكم في السارق بقطع اليد، وفي الزاني والقاذف بالجلد، ولو كان الذنب يكفر صاحبه ما كان الحكم على هؤلاء إلا القتل . فلو كانوا كفارا لما كانت عقوباتهم القطع والجلد، ولما قبل عفو ولي المقتول عن القاتل، لأن المرتد لا تقبل فيه العفو من أحد في الدنيا . ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني والسارق والقاذف لا يقتلون، بل يقام عليهم الحدود، فدل ذلك على أنهم ليسوا مرتدين (٢) .

ثالثا: أننا نجد في القرآن نصوصا جعل الله سبحانه فيها مرتكب الكبيرة من المؤمنين، وأثبت له صفة الإيمان، وأخوة الإيمان (٣)، فقد قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى﴾ إلى أن قال سبحانه : ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : ١٧٨]، فلم يخرج سبحانه القاتل من الذين آمنوا وجعله أخا لولي القصاص، والمراد أخوة الدين بلا ريب (٤) .

---

(١) أخرجه البخاري عن ابن عباس في كتابه الجهاد .

(٢) انظر رسالة الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص٨٩، وشرح العقيدة الطحاوية ص٣٦١ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٦١، العقيدة الواسطية مع شرحها لمحمد خليل هراس، ص١٣٨، ١٣٩ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٦١ .

وكذلك قال تعالى : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ إلى أن قال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات : ١٠] .

أهل السنة يثبتون للمعاصي عقوبتها المنصوص عليها :

وإذا كان أهل السنة يقررون بأن المعاصي من كبائر وذنوب لا توقع صاحبها في الردة، إن لم تقترن بسبب من أسباب الكفر، فإنهم لا يقولون : لا يضر مع الإيمان معصية، وهو ما قالته فرقة تسمى "المرجئة"، فإنهم ادعوا أن الذنب لا يضر صاحبه أبدا ما دام مؤمنا . وهذا قول مخالف لكتاب الله وسنة رسول ﷺ فقد أخبر الشارع عن العقوبات الأخروية لكثير من المحرمات والمعاصي .

وأما أهل السنة فيرون أن أفعل المعاصي يترتب عليه العذاب والعقاب الذي توعد الله به على فعلها، في كتابه، وعلى لسان رسول ﷺ وأنها تؤثر على الإيمان، من حيث زيادته ونقصه، لا من حيث بقاؤه وذهابه، بل قد يؤدي الإكثار من مقارفة المعاصي إلى الوقوع في الكفر والردة، بإنكار بعض ما جاء به الرسول ﷺ لتبرير مقتضيات الهوى والشهوة . ولأن اتباع الشهوات واقتراف الذنوب والمعاصي يميت القلب إذا كثر، فيغدو يؤول ويبرر لصاحبه كل ما يفعله، حتى يوقعه في استحلال المعاصي، فيؤدي بصاحبه إلى الكفر، والعياذ بالله .

شبهة "المرجئة" أنها حملت ظواهر النصوص المتقدمة الدالة على أنه من مات على التوحيد دخل الجنة، كقوله ﷺ : " من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة " (١)، فظنوا أن دخوله الجنة يقتضي عدم عذابه ولكن لا تلازم بينهما، فقد يعذب المؤمن العاصي بما شاء الله أن يعذب، ثم يدخله الجنة في المآل (٢) . وربما تمسكوا بقوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة : ٩٣] .

والحق أن هذه الآية نزلت في حق من مات من الصحابة رضوان الله عليهم، قبل تحريم الخمر، حيث لم يكونوا مكلفين باجتنابها قبل تحريمها، ويدل على ذلك ما ورد في سبب نزولها، فقد ورد أن قدامة بن عبد الله شرب الخمر بعد تحريمها وطائفة، وتأولوا قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ . فلما ذكر ذلك لعمر بن الخطاب " اتفق هو وعلي ابن أبي طالب

(١) صحيح مسلم مع شرح لبنووي ج١ ص٢١٨ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ج١ ص٢١٩ .

وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا، وإن أصروا على استحلالها قتلوا، وقال عمر لقدامة : أما إنك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر . وذلك أن هذه الآية نزلت بسبب أن الله سبحانه، لما حرم الخمر، وكان تحريمها بعد وقعة أحد، قال بعض الصحابة : فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ؟ فأنزل الله هذه الآية وبين فيها أن من طعم الشيء في الحال التي لم يحرم فيها فلا جناح عليه إذا كان من المؤمنين المتقين الصالحين (١) .

الكبائر :

ذلك هو حكم المعاصي جميعا، صغيرة كانت أم كبيرة : حذر الله ورسوله ﷺ من الوقوع فيها، فيجب على المؤمن أن يتزود دائما بتقوى الله، ويكثر من هذا الزاد، ويجتنب محارم الله، ويقف عند حدوده، ولا يتساهل فيقول : هذه صغيرة فإن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ [النساء : ١٢٣] . وقال رسول الله ﷺ : " إن المذنب إذا أذنب نكتت نكته سوداء في قلبه، فإن تاب واستغفر صقل قلبه، وإن لم يتب زادت حتى تعلو قلبه " (٢)، أي تغشيه وتغطيه تلك النكتة السوداء، وهذا هو الران الذي ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه فقال : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين : ١٤] .

وقد قال بعض العلماء : لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر من عصيت . وقال الحسن البصري : ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة (٣)، ويؤيده قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح : " ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم " (٤)، فانظر كيف أتى عليه الصلاة والسلام بالاستطاعة في جانب المأمورات، ولم يأت بها في جانب المنهيات، إشارة إلى عظيم خطرها، وقبيح وقعها، وأنه يجب بذل الجهد واستفراغ الوسع في الابتعاد عنها . قال الفضيل بن عياض : بقدر ما يصغر الذنب عندك

(١) انظر، تفسير القرطبي ج٦ ص٢٩٣، وشرح العقيدة الطحاوية ص٣٦٤، ٣٦٥ .

(٢) رواه ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه – انظر، صحيح الترمذي بشرح ابن العربي، ج١٢ ص٢٣٤، وقد قال عنه الترمذي، حسن صحيح، وسنن ابن ماجه ج٢ ص١٤١٨ .

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر ج١ ص١٢ .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم، فتح الباري ج١٧ ص٢١، مطبعة الحلبي . وصحيح مسلم، بشرح النووي ج٥ ص١٩ .

يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله . وقال السلف : المعاصي بريد الكفر (١) . ذلك أن كثرتها تقسي القلب فيخرج منه كل خير، فيرتكب ما أراد، ويفعل ما أحب، فيتخذ الشيطان وليا من دون الله، فيضله ويغويه ويصده ولا يرضى منه بأقل من الكفر ما وجد إليه سبيلا .

ومع هذا فإنه لا شك أن الله سبحانه وتعالى قد شدد على بعض المعاصي، وتوعد عليها وهدد من يفعلها بأشد العقاب . وكذلك الرسول ﷺ أخبر عن بعض المعاصي أنها من الموبقات، أي المهلكات، وذكر شيئا منها في عدد من الأحاديث الصحيحة وسماها الكبائر، من هذه الأحاديث :

١- عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر "ثلاثا" : الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور أو قول الزور، وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت (٢) .

٢- وعن أبي هريرة " أن رسول الله ﷺ قال : " اجتنبوا السبع الموبقات، قيل : يا رسول الله : وما هن ؟ قال : الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات " (٣) .

٣- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : " من الكبائر شتم الرجل والديه، قالوا : يا رسول الله : وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال نعم، يسب أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه " (٤) .

وهنالك أحاديث أخرى فيها ذكر بعض المعاصي، وتسميتها بالكبائر . والواقع أنه ليس في الأحاديث حصر لها في عدد مذكور (٥) . ولعل عدم حصرها في عدد معين مقصود لحكمة حث المؤمنين على اجتناب المعاصي كلها، خشية أن يكون بعض ما يرتكبه العبد من الكبائر، ومع هذا فقد ذهب جماهير السلف والخلف إلى انقسام المعاصي

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر ج١ ص١٢ .

(٢) صحيح مسلم مع شرح النووي ج٢ ص٨١، ٨٢ وأخرج البخاري نحوه عن أنس في كتاب الديات .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص٨٢، ٨٣ . وأخرجه البخاري في كتاب الوصايا .

(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم، انظر، صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص٨٢، ٨٣ .

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم ج٢ ص٨٤ .

إلى صغائر وكبائر، ولا شك أن في كل معصية مخالفة لله تعالى في أمره أو نهيه . ومخالفة الله عز وجل قبيحة جدا بالنسبة لجلال الله تعالى، ولكن بعض المعاصي أخف من بعض .

تعريف الكبيرة ومعيارها :

هذا وقد اختلفت عبارات العلماء في تعريف الكبيرة، وتمييزها عن الصغيرة (١) . ولكن كثيرا منهم يرجح أن الكبيرة هي كل معصية يترتب عليها حد أو توعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن البصري رحمه الله تعالى (٢) . وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله : إن كل معصية يقدم المرء عليها من غير استشعار خوف وحذار وندم، كالمتهاون بارتكابها والمتجرئ عليها اعتياديا، فما أشعر بهذا الاستخفاف والتهاون فهو كبيرة، وما يحمل على فلتات اللسان والنفس وفترة مراقبة التقوى ولا ينفك عـــن تندم يمتزج به تنغيص التلذذ بالمعصية، فهذا لا يمنع العدالة، وليس بكبيرة (٣) .

ومن المستحسن في هذا المقام أن نثبت للأخ القارئ كلاما حسنا معقولا في التمييز بين الصغيرة والكبيرة للإمام الشيخ العز بن عبد السلام في كتابه "القواعد" فقد قال :

(إذا أردت معرفة الفرق بين الصغائر والكبائر فاعرض مفسدة الذنب على مفاسد الكبائر المنصوص عليها، فإن نقصت عن أقل مفاسد الكبائر – أي المنصوص عليها فهي من الصغائر، وإن ساوت أدنى مفاسد الكبائر، أو أربت عليها، فهي من الكبائر، فمن شتم الرب أو الرسول ﷺ أو استهان بالرسل أو كذب واحدا منهم ... أو ألقى المصحف في القاذورات فهذا من أكبر الكبائر، ولم يصرح الشرع بأنها كبيرة . وكذلك لو أمسك امرأة محصنة لمن يزني بها، أو مسلما لمن يقتله، شك أن مفسدة ذلك أعظم من مفسدة أكل مال اليتيم مع كونه من الكبائر وكذلك لو دل الكفار على عورة المسلمين مع علمه بأنهم يستأصلونهم بدلالته، ويسبون حرمهم وأطفالهم ويغتنمون أموالهم ويزنون بنسائهم ويخربون ديارهم، فإن تسببه إلى هذه المفاسد أعظم من توليته يوم الزحف بغير عذر مع كونه من الكبائر . وقد نص الشارع على شهادة الزور وأكل مال اليتيم من الكبائر، فإن وقعا في مال خطير فهذا ظاهر، وإن وقعا في مال حقير، فيجوز أن يجعل من الكبائر فطاما

---

(١) انظر أقوالهم في ذلك في كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر ج١ ص٤ وما بعدها . وشرح النووي على صحيح مسلم ج٢ ص٨٥ وما بعدها .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٤١٨ وشرح النووي على صحيح مسلم ج٢ ص٨٥ .

(٣) نقله عن الغزالي النووي في شرحه على صحيح مسلم ج٢ ص٨٥ .

عن هذه المفاسد، كما جعل شرب قطرة من الخمر من جملة الكبائر، وإن لم يتحقق المفسدة فيه ... والوقوف على تساوي المفاسد وتفاوتها عزة ولا يهتدي إليها إلا من وفقه الله تعالى، والوقوف على التساوي أعز من الوقوف على التفاوت، ولا يمكن ضبط المصالح والمفاسد إلا بالتقريب (١) ثم قال : (وقد ضبط بعض العلماء الكبائر بأن قال : كل ذنب قرن به وعيد أو حد أو لعن فهو من الكبائر ... فقتل المؤمن كبيرة، لأنه اقتران به الوعيد واللعن . والمحاربة والزنا والسرقة والقذف كبائر، لاقتران الحود بها . وعلى هذا كل ذنب علم أن مفسدته كمفسدة ما قرن به الوعيد أو اللعن أو الحد أو أكبر من مفسدته فهو كبيرة) (٢) .

ذكر بعض الكبائر :

ومن هنا تعلم أيها الأخ القارئ أن ما ذكره العلماء من ضوابط للتمييز بين الصغائر والكبائر إن هو إلا على وجه التقريب، وتعلم أن النصوص وردت بالتعريف ببعض الكبائر، وأخرى عرفت الصغائر . وهنالك أنواع أخرى من المعاصي مشتملة على صغائر وكبائر، فواجبك أن تجتهد في اجتناب كل معصية، وأن تبذل كل جهد في توقي ما نص الشارع على أنه كبيرة، وتضاعف جهدك في ذلك . وكذلك فيما رجح العلماء أنه منها . ولا تستصغرن معصية مهما كانت، ولا تتهاون فيها، ولا تصرن على ذنب مهما كان صغيرا، فإن العلماء نصوا على أن الإصرار على الصغيرة بمثابة ارتكاب الكبيرة . وحد الإصرار أن يتكرر فعل الصغيرة تكرارا يشعر بقلة مبالاة الشخص بدينه (٣) . وكذلك الإكثار من فعل الصغائر ولو كانت مختلفة لا يقل عن ارتكاب كبيرة من الكبائر، لأن هذا الإكثار من فعل الصغائر يدل على عدم المبالاة بالدين، وعلى استصغار مخالفة الرب عز وجل .

وفي هذا المقام أذكر جملة من الكبائر التي ذكرها ابن حجر الهيثمي في كتابه القيم "الزواجر عن اقتراف الكبائر" فمنها :

الشرك الأكبر أعاذنا الله منه، والشرك الأصغر وهو الرياء، والغضب بالباطل والحقد والحسد، والكبر والعجب والخيلاء، والغش، والنفاق، والبغي، الإعراض عن الخلق استكباراً واحتقاراً لهم، والطمع، وسخط المقدور، والنظر إلى الأغنياء وتعظيمهم لغناهم، والاستهزاء بالفقراء لفقرهم، والتنافس في الدنيا، والمباهاة بها، والتزين للمخلوق بما يحرم

---

(١) قواعد الأحكام ج١ ص٢٣ – ٢٤ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) قواعد الأحكام ج١ ص٢٧ .

التزين به، والمداهنة، وحب المدح بما لا يفعله، والحمية لغير دين الله، وهو أن حقوق الله تعالى وأوامره على الإنسان، واتباع الهوى والإعراض عن الحق، وسوء الظن بالمسلم، وعدم قبول الحق إذا جاء بما لا تهواه الأنفس، أو جاء على يد من تكرهه، وفرح العبد بالمعصية، والإصرار عليها، ونسيان الله تعالى والدار الآخرة، والأمن من مكر الله، والاسترسال في المعاصي، وسوء الظن بالله تعالى، والقنوط من رحمته، وتعلم العلم للدنيا، كتم العلم، وعدم العمل بالعلم وتعمد الكذب على الله تعالى أو على رسوله ﷺ وسن السنة السيئة في الناس وترك السنة النبوية، عدم الوفاء بالعهد، ومحبة الظلمة والفسقة، وبغض الصالحين، وأذيتهم، والكلمة التي تعظم مفسدتها، وينتشر ضررها مما يسخط الله، وترك الصلاة على رسول الله ﷺ عند سماع ذكره بسبب اشتغال بلهو محرم، والرضا بالكبيرة والإعانة عليها، وملازمة الشر والفحش حتى يخشاه الناس، ونسيان القرآن، والجدال والمراء وهو المخاصمة والمحاججة وطلب القهر والغلبة في القرآن أو الدين، وعدم التتره من البول في البدن أو الثوب، وكشف العورة لغير ضرورة ووطء الحائض، وتعمد ترك الصلاة وتعمد تأخير الصلاة عن وقتها، أو تقديمها عليه من غير عذر كسفر أو مرض وإمامة الناس لقوم يعلم أنهم كارهون لإمامته وقطع الصف في الصلاة، وعدم تسويته، ومسابقة الإمام، واتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج عليها واستلامها، وسفر المرأة وحدها، وترك السفر أو الرجوع منه تشاؤما وتطيرا، وترك صلاة الجمعة مع الجماعة من غير عذر، وتخطي الرقاب يوم الجمعة، ولبس الرجل للحرير الخالص بغير عذر شرعي، وتحليه بالذهب أو الفضة في في غير الخاتم، وتشبه الرجال بالنساء فيما يختص به عرفا من لباس أو كلام أو حركة أو نحوها، وكذلك عكسه - أي تشبه النساء بالرجال - والخيلاء والتبختر في المشي، ولطم الخد، وشق الجيب والنياحة، والدعاء بالويل، أو الثبور عند وقوع المصيبة، وترك الزكاة، وتأخيرها بعد وجوبها لغير عذر شرعي، وشح الدائن على مدينه المعسر مع علمه بإعساره، والمن بالصدقة، ومنع فضل الماء عن المحتاج والمضطر، وترك صوم يوم من أيام رمضان، والإفطار فيه بغير عذر من سفر أو مرض، وتأخير قضاء ما تعدى بفطره من رمضان، وصوم العيدين وأيام التشريق، وترك الحج مع القدرة عليه إلى الموت، وشرب المسكر أو أكله مهما كان خمرا أو حشيشة أو أفيونا، وأكل لحم الخترير أو الميتة، وأكل الربا أو إطعامه وكتابته وشهادته، والسعي فيه والإعانة عليه، وأكل المال بالبيوعات الفاسدة وسائر وجوه الكسب المحرم، والاحتكار والغش في البيع، وإنفاق السلعة بالحلف الكاذب، وتطفيف الميزان ونحوه، ومطل الغني بعد المطالبة من غير عذر، وأكل مال اليتيم، وإنفاق المال في المحرمات، والبناء وفق الحاجة للخيلاء، وخيانة الشريك والوكيل، والغصب وهو الاستيلاء على مال الغير ظلما، وتأخير أجر الأجير، أو منعه منه

بعد إتمام عمله، والاستيلاء على مال مباح ومنعه ابن السبيل، وجحد الأمانات كالوديعة، والعين المرهونة أو المستأجرة، وغير ذلك ".

وقد ذكر ابن حجر غير هذه الأمور، فيحسن الاطلاع على كتابه (١) .

أسباب سقوط العقوبة عن العصاة :

وإذا وقع العبد المؤمن في المعصية فإن الله سبحانه وتعالى قد فتح لعباده أبواب رحمته، للخلاص من عقوبة ما يقعون فيه، إذا أخلصوا واتقوا .

هذا وقد استقرأ بعض العلماء الأسباب التي تسقط العقوبة عن المعاصي في نصوص القرآن والسنة، ونلخص للأخ القارئ ما خلص إليه شارح العقيدة الطحاوية في هذا الموضوع (٢) . فقد قال "إن فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب، عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة"، ثم ذكر منها ما يلي :

السبب الأول : التوبة، فقد قال تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ [مريم : ٥٩ – ٦٠] . وقال أيضاً : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ١٦٠] .

وتوبة التي تسقط العقوبة هي التوبة النصوح، وهي الخالصة النابعة من القلب، لا المقتصرة على النطق باللسان . وهي ما يصحبها الندم على ما فات من المعاصي، والعزم على عدم العودة إليها، وعمل الصالحات .

وكون التوبة سببا لغفران الذنوب، وعدم المؤاخذة بها مما لا خلاف فيه بين الأمة . وليس شيء يكون سببا لغفران جميع الذنوب إلا التوبة، قال تعالى : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر : ٥٣] .

---

(١) انظر، كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر، الجزء الأول والثاني . وممن صنف في الكبائر، وذكر أقسامها وأدلتها الإمام الذهبي في كتاب الكبائر، والشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب الكبائر أيضا .

(٢) انظر ذلك بالتفصيل في شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧١ – ٣٩٧، ص٥١١ – ٥١٧ .

السبب الثاني : الاستغفار، فقد قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال : ٣٣] والواقع أن الاستغفار يدخل في معنى التوبة، فإن الاستغفار طلب مغفرة الذنوب التي وقع فيها العبد، وهو ما يدخل في الندم على ما قدم الإنسان، فإن طلب المغفرة عنوان هذا الندم، وتزيد التوبة عن الاستغفار أن في معناها العزم على اجتناب المعاصي في المستقبل .

السبب الثالث : فعل الحسنات، فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود : ١١٤] .

السبب الرابع : الوقوع في المصائب الدنيوية، لقوله ﷺ : " ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا هم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه " (١) .

واعلم أن تكفير الخطايا يكون بسبب وقوع المعصية نفسها، فإذا صبر المبتلى فاز بثواب جديد فوق تكفير خطاياه، وإن سخط اكتسب إثما جديدا، ويبقى تكفير خطاياه بوقوع المصيبة .

السبب الخامس : عذاب القبر .

السبب السادس : أهوال يوم القيامة وشدائده .

السبب السابع : شفاعة من أذن الله لهم بالشفاعة يوم القيامة .

السب الثامن : عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة، كما قال تعالى : ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء : ٤٨ – ١١٦] .

السبب التاسع : دعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات .

السبب العاشر : ما يهدى للعبد المؤمن من ثواب صدقة، أو قراءة أو حج أو نحو ذلك . فقد اتفق أهل السنة على أن الأموات من المؤمنين ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين :

الأمر الأول : ما تسبب إليه الميت في حياته، لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده " (٢) .

الأمر الثاني : دعاء المسلمين واستغفارهم والصدقة والحج، واختلفوا في العبادات البدنية، كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر .

---

(١) متفق عليه – انظر رياض الصالحين ص٣١ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة، والبخاري في الأدب .

فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها، والمشهور من مذهب الشافعي ومالك عدم وصولها .

والدليل على انتفاع الميت بأشياء لم يتسبب فيها قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر : ١٠]، فأثنى سبحانه وتعالى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء .

وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجماعة .

والأدعية التي وردت بها السنة في صلاة الجنازة مستفيضة، وكذلك الدعاء له بعد الدفن . وكان رسول الله ﷺ يعلم الصحابة رضوان الله عليهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا : " السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية " (١) .

ويدل على وصول ثواب الصدقة للميت ما ورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله، إن أمي افتلتت نفسها و لم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصديق عنها ؟ قال : نعم (٢)، وقد ورد أكثر من حديث في هذا المعنى .

ويدل على وصول ثواب الصوم ما ورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : " من مات وعليه صيام صام عنه وليه " (٣) .

ويدل على وصول ثواب الحج ما ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : "أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت : إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها ؟ قال : حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين، أكنت قاضيته ؟ أقضوا الله فالله أحق بالوفاء" (٤) .

وهذا لا يتناقض مع قوله تعالى : ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم : ٣٩]، وقوله : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة : ٢٨٦]، وقوله : ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يّـــس : ٥٤]، لأن الإنسان بدخول الإسلام وارتباطه بذلك مع إخوانه المسلمين برباط الأخوة الإيمانية وبحسن عشرته وإسداء الخير للناس، وتودده لهم، يكون ساعيا في حثهم على الدعاء له بعد مماته، والاستغفار والترحم عليه، وإهداء ثواب الطاعات له . فكان هذا

(١) أخرجه مسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج٧ ص٤٥ .
(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم – انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج٧ ص٨٩ .
(٣) متفق عليه – انظر صحيح اللبخاري في كتاب الصوم (باب من مات وعليه صوم) .
(٤) أخرجه البخاري . انظر صحيح البخاري مع فتح الباري ج٤ ص٥٢ .

الكسب أثرا من آثار سعيه . فالقول بانتفاع الميت بما يهدى إليه من إخوانه لا يتعارض مع تلك الآيات الكريمات، فإنها آيات محكمة تقتضي عدل الله تعالى، وتقضي أن لا يعاقب أحد بجرم غيره، ولا يؤخذ بجريرة غيره، كما يفعله ملوك الدنيا، وتقضي أنه لا يفلح أحد إلا بعلمه، لينقطع طعمه بعمل آبائه وسلفه ومشايخه .

إلا أنه يجدر بالملاحظة أن هناك بعض العادات والبدع لا تدخل فيما تقدم . وليس عليها دليل من الشرع و لم يقل بجوازها أحد من العلماء، مثل استئجار قوم يقرأون القرآن، ويهدونه للميت، فهذا العمل لم يجزه أحد . وإنما اختلف الفقهاء في جواز الاستئجار على تعليم القرآن . وأما الاستئجار لقراءته وإهدائه للميت، أو الاستئجار لمن يصلي ويصوم ويهدي للميت فهذا لا خلاف في عدم جوازه . ولكن الذي يدخل فيما سبق يقتصر على قراءة القرآن وإهدائها للميت تطوعا بغير أجرة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

هذه دعوتنا

- دعوة الى الهجرة إلى الله بتجريد التوحيد، والبراءة من الشرك والتنديد، والهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بتجريد المتابعة له.

- دعوة إلى إظهار التوحيد، بإعلان أوثق عرى الإيمان، والصدع بملة الخليلين محمّد وإبراهيم عليهما السلام، وإظهار موالاة التوحيد وأهله ، وإبداء البراءة من الشرك وأهله.

- دعوة إلى تحقيق التوحيد بجهاد الطواغيت كل الطواغيت باللسان والسنان، لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور المناهج والقوانين والأديان إلى عدل ونور الإسلام.

- دعوة إلى طلب العلم الشرعي من معينه الصافي، وكسر صنميّة علماء الحكومات، بنبذ تقليد الأحبار والرهبان الذين أفسدوا الدين، ولبّسوا على المسلمين...

وهل أفسد الدين إلا الملوك　　وأحبار سوء ورهبانها

- دعوة إلى البصيرة في الواقع، وإلى استبانة سبيل المجرمين، كل المجرمين على اختلاف مللهم ونحلهم ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾.

- دعوة إلى الإعداد الجاد على كافة الأصعدة للجهاد في سبيل الله، والسعي في قتال الطواغيت وأنصارهم واليهود وأحلافهم لتحرير المسلمين وديارهم من قيد أسرهم واحتلالهم.

- ودعوة إلى اللحاق بركب الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله.

منبر التوحيد والجهاد
www.alsunnah.info
www.tawhed.ws
www.almaqdese.com